

مقدمة كتاب

اقوم المسائل

في

عرفة احوال الممالك

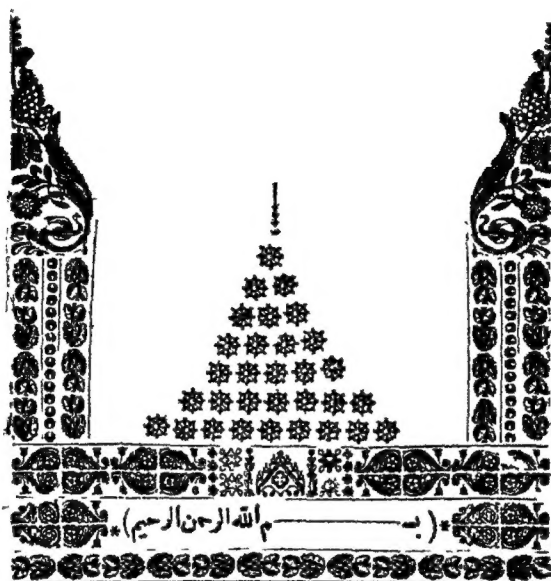
تأليف النظم الممام الانظم حضرة دولتو غير الدين
باشا الوزير الاكبر الشوير الغنى عن التشهير
فيما انتشر من شعاع شمس ما تزه ليس
فقط حين توليه المناصب العاليه كمرآة
الوزارة في تونس والصدارة العظمى



للدولة العلية بل ذلك
على الدوام دام
رب العالمين

(طبع مطبعة جريدة الاسكندرية)
العقير الى ربه سليم وحجج في منتهى

سنة ١٢٩٩ هجرية



سبحان من جعل من نتائج العدل العمران * وفضل بالعقل نوع
 الانسان * واهله به تحسن التدبير ومراتب العرفان * وامره
 بالتعاون على البر والتقوى دون الائم والعدوان * أحده وهو
 الممودنى كل آن بكل لسان * واصلى على عبده سيدنا محمد المرسل
 بالكتاب والميزان * المنزل عليه ان الله يامر بالعدل والاحسان
 وعلى آله واصحابه حفاظا شريعته اللائقة بكل زمان * الدائرة
 احكامها على مركزى الايمان والامان * اما بعد فيقول جامع هذه
 الورقات

* (٣) *

الورقات * أرشده الله الى اقوم الطرقات * اتى بعد ان نامت ناملًا
 ظويلا * في اسباب تقدم الامم وتأخرها جيلًا بجيلًا * مستندا في ذلك
 لما يمكن تصفحه من التواريخ الاسلامية والافرنجية * مع ما حره
 المؤلفون من الفريقين فيما كانت عليه وآلت اليه الامة الاسلامية
 وما سيؤول اليه امرها في المستقبل * بمقتضى الشواهد التي قصت
 التجربة بان تقبل * التجأت الى المجزم بما لا اظن عاقلا من رجال
 الاسلام يناقضه * أو ينهض له دلائل يعارضه * من ان اذا اعتبرنا
 تسابق الامم في ميادين التمدن * ونحزب عزائمهم على فعل ما هو اعود
 نفعا واعون * لا ينهانا ان غير ما يليق بنا * على قاعدة محكمة
 البنا * الا معرفة احوال من ليس من حزبنا * لاسيما من حلف بنا وحل
 بقربنا * ثم اذا اعتبرنا ما حدث في هذه الازمان * من الوسائط
 التي قربت تواصل الابدان والاذهان * لم نتوقف ان تصور الدنيا
 بصورة بلدة متحدة * تسكنها امم متعددة * حاجة بعضهم لبعض
 متأكده وكل منهم وان كان في مساعيه الخصوصية غريم نفسه * فهو
 يالتظر الى ما يضر بها من الفوائد العمومية مطلوب لساثر بني جنسه *
 فمن لاحظ هذين الاعتبارين * اللذين لا تبقى المشاهدة في صحتهما
 ادقارين وكان بمقتضى ديانتهم من الدارين * ان الشريعة الاسلامية
 كافلة بمصالح الدارين * ضرورة ان التنظيم الديوى اساس متين *
 لاستقامة نظام الدين * يسوء ان يرى بعض علماء الاسلام * الموكول
 لامانتهم مراعاة احوال الوقت في تنزيل الاحكام * معرضين عن
 استكشاف الحوادث الداخلية * واذهانهم عن معرفة الخارجية

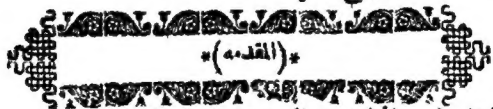
* (٤) *

عليه * ولا يخفى ان ذلك من أعظم العوائق * من معرفة ما يجب اعتباره
على الوجه اللائق * أفيجس من أساءة الامة الجاهل بأمرائها * أو صرف
الهمة الى اقتناء جواهر العلوم مجردة عن أعراضها * وكأنه يسوءه
الجاهل بذلك من بعض رجال السياسة * والتجاهل من بعضهم رغبة
في اطلاق لراسه * فلذلك همس بيالى * ما استذكت لاجله
ذباى * مرانى لوجعت بعض ما استنقجت من ذننين بأعمال الفسك
والزوبه * مع ما شاهدته أثناء سفارى للبلدان الاوربويه * التي
أرسلنى اى بعض دوها الفخام الطود الرفيع الاسمى * والكهف
المنيع الاسمى حباب دلى النعم * وزكى الاخلاق والقيم * من لم تزل
هزائمه كاسه صادقه * ولسته الايام بالثناء عليه فاطقه * لم يخل
سعي مر فائده * خصوصا اذا صادف افئدة على حماسة بيضة الاسلام
متعاضده * واهم تلك الفرائد عندى * التي هي في هذا التاليف
مناط قصدى * تذكير العلماء الاعلام * بما يعينهم على معرفة
ما يجب اعتباره من حوادث الايام * وايقاظ الغافلين من رجال
السياسة والخواص والعموم * ببيان ما ينبغي ان تكون عليه
التصرفات الداخلية والخارجية * وذكر ما تصكد معرفته من
احوال الأمم الاوربية * خصوصا من لهم بنا مزيد اختلاط * وشديد
علاقة وارتباط * معها اولعوا به من صرف الهمم * الى استعاب
احوال سائر الامم * واستشاهلهم ذلك بطى مسافات الكرة الذى الحق
شاهها بالامم * فجمعت ما تيسر بعون الله من مستحدثاتهم المتعنة
بسياسى الاقتصاد والتنظيم * مع الاشارة الى ما كانوا عليه فى العهد
القديم * وبيان الوسائل التي ترقوا بها فى سياسة العباد * الى

الغاية

(*) *

الغاية القصوى من عمران البلاد * كما اثرت الى ما كانت عليه امة
الاسلام المشهود لها حتى من مورخى اوروبا الاعيان * بما بقية
التقدم فى مسمارى العرفان والعمران * وقت نفوذ الشريعة فى
احوالها * ونسج سائر التصرفات بمنوالها * والغرض من ذكر
الوسائل التى اوصلت الممالك الاورباويه * الى ما هي عليه من المنعة
والسلطة والدينويه * ان تفخير منها ما يكون بحالنا لاننا * ولنصوص
شريعتنا مساعدا وموافقا * عسى ان نسترجع منه ما اخذنا من
ايدينا * ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا * الى
خير ذلك مما تشوف اليه نفس الناظر فى هذا الموضوع * المحتوى
من الملاحظات العقلية والعقلية على ما نشره بهلى فصوله بوضوح * وشميته
اقوم الممالك * فى معرفة احوال الممالك * مرتبها على مقدمة وكتابين
يشتمل كل منهما على ابواب * وهداية الله نستوضح منهاج الرشاد
والصواب * والجري فى هذا المجال وان كان فوق طاقتى * لكن
اغضاه الفضلاء مامول فى جنب طاقتى * وصدق النبى * كافل ان
شاء الله تعالى ببلوغ الامنية *



(المقدمة) *

لما كان السبب الحامل على الشئ متقدما عليه طبعا فاسب ان تقدمه
وضعا ولم نكتف بالايحاء فى الخطة الى مادعانا بجمع هذا التاليف
بل رأينا من المهم ان نعود الى ايضاحه هنا ونبنى عليه ما اردنا
ايراده فى المقدمة فنقول ان الباعث الاصلى على ذلك امران آيلان
الى مقصد واحد احدهما اغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال

(٦)

السباسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال
الامة الاسلامية ونفعية اسباب تقدمها بمثل توسيع دوائر العلوم
والعرفان وتهدد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر
الصناعات ونفي اسباب البطالة وأساس جميع ذلك حسن الامارة
المتولد منه الامن المتولد منه الامل المتولد منه اتقان العمل المشاهد
في الممالك الاورباوية بالعيان وليس بعده بيان ثنائهما تحذير
ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما محمد
من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما تنتقش في عقولهم من ان
جميع ما عليه غير المعلم من السير والتراتيب ينبغي ان يهجروا ليفهم
في ذلك يجب ان تنبذ ولا تندكر حتى انهم يشددون الانكار على من
يستحسن شيئا منها وهذا على اطلاقه خطأ محض فان الامر اذا كان
صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للادب لا سيما اذا كان عليه واخذ
من ايدينا فلا وجه لانكاره واهماله بل الواجب انحرص على
احتراجه واستعماله وكل متمسك بديانة وان كان يرى غيره ضالا
في ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من
اعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الامة الافرنجية فانهم
ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنا من اعماله حتى بلغوا
في استقامة نظام دنياهم الى ما هو مشاهد وشان الناقد البصير
تميز الحق بمسار النظر في الشيء المعروض عليه قولا كان أو فعلا فان
وجد صوابا قبله واتبعه سواء كان صاحبه من اهل الحق أو من
غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال والمحكمة
ضالمة المؤمن ياخذها حيث وجدها

ولما

(v)

ولما اشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بان حادة الفرس ان يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم براه وحفر خندقا للمدينة في غزوة الجواب عمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين وقال سيدنا على كرم الله وجهه لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال واذا ساءل السلف الصالح اخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما راوه من الآلات النافعة حتى قال الغزالي من لا يعرفه بالمنطق لا يوثق بعلمه فاي مانع لنا اليوم من اخذ بعض المعارف التي نرى انفسنا محتاجين اليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد * وفي سنن المهتدين للعلامة الشيخ المواق المسلكي مانصه ان مانعنا عنه من اعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا اما ما فعلوه على وفق النذب أو الايجاب أو الاباحة فانا لا نتركه لاجل تعاطيهم اياه لان الشرع لم يمه عن التشبيه بمن يفعل ما اذن الله فيه وفي حاشية الدر المختار للعلامة الشيخ محمد بن عابدين المحنفي مانصه ان صورة المشابهة فيما يتعلق به صلاح العباد لا تنظر على انا اذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من اعمال الافرنج نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات وتايجها ولا يمتنعون منها فيما يضرهم وذلك انا نراهم يتنافسون في الملابس واثاث المساكن ونحوها من الضروريات وكذا الاسلحة وسائر الماوزم الحربية والحمال ان جميع ذلك من اعمال الافرنج ولا يخفى ما يلحق الامة بذلك من الشين والتحلل في العمران وفي السياسة اما الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تاخر الامة في

المعارف واما خلل العمران فبعدم ارتفاع صناعات البلاد باصطناع
نتائجها الذي هو اصل مهم من اصول المكاسب ومصداق ذلك
ما نشاهده من ان صاحب الغنم منا ومستولد الحمرير وزارع القطن
مثلا يقضم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجي
بثمان يسير ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة باضعاف ما يباعه
به وبالجمله فليس لنا الا نحن من نتائج ارضنا الا قيمة موادها المجردة
دون التطويرات العملية التي هي منشأ توفر الرغبات منا ومن
غيرنا ثم اذا نظرنا الى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما
يدخلها فان وجدناهما متقاربين خف الضرر واما اذا زادت قيمة
الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لامحالة واما الخلل
السياسي فان احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها
لا سيما اذا كان متعلق الاحتياج بالضروريات الحربية التي
تؤتي سرتها وها زمن الصلح لا يتيسر ذلك وقت الحرب ولو باضعاف
القيمة ولا سبب لما ذكرناه الا تقدم الافرنج في المعارف الناتجة عن
التعليمات المؤسسة على العدل والحريه فكيف يدوغل للعاقل
حرمان نفسه عما هو مستحسن في ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام
نفعه بمجرد اوهام خيالية واحتمياط في غير محله وما يحسن سوقه هنا
قول بعض المؤلفين من الاورباو بين في السياسات الحربية ان
الممالك التي لاتنتج على منوال مجاورها فيما يستحدثونه من
الالات الحربية والترائب العسكرية يوشك ان تكون غنيمة لهم
ولو بعد حين ونخص الترائب الحربية لانها موضوع كتابه والافان واجب
جوارا الجار في كل ما هو مظنة لتقدمه سواء كان من الامور العسكرية

أومن غيرها وما يؤيد ما قورناه قوله صلى الله عليه وسلم لعاصم بن ثابت من حديث من قاتل فليقاتل كما يقاتل ويوضح معناها ما تضمنته وصية الصديق محمد بن الوليد رضي الله عنهما حين بعثه لقتال المرتدين فقال يا خالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك الى ان قال والمحرف عند أهل اليمامة فاذا دخلت بلادهم فاحذروا المحذر ثم اذا لاقت القوم فقاتلهم بالسلح الذي يقاتلونك به السهم لاسهم والرمح للرمح والسيف للسيف قلت ولوادرك هذا الزمان لا يدل ذلك بدفع الشيطان ومكحلة الابرة والسفينة المدرعة ونحوها من المخترعات التي تتوقف عليها المقاومة ولا يحصل بدونها الاستعداد الواجب شرعا الذي يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعى في تهيبه مثلها أو غير منها ومعرفة الاسباب المحصلة له وبناء على ذلك يقال هنا هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون تقدم في المعارف واسباب العمران المشاهدة عند غيرنا وهل يتيسر ذلك التقدم بدون اجراء تعليمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التماس على دعائى العدل والحرية اللذين هما اصلان في شريعتنا ولا يخفى انهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك ولما كان الغرض من هذا الكتاب لا يتم الا ببيان احوال البلدان الاورباوية لزم ان نشئ النان اليه مدرجين في اثنا عشر ما يناسب الامة الاسلامية فنقول ان المحالة الراهنة في ممالك اوربا لم تكن ثابتة لها من قديم الزمان لانها كانت بعد هجوم البرابرة الشماليين وسقوط الدولة الرومانية سنة اربعمائة وست وسبعين مسيحية

* (١٢) *

ومن أهم أصولها وجوب المشورة التي أمر الله بها رسوله المنصوم صلى الله عليه وسلم مع استغنائها بالوحي الأسمى وبما أودع الله فيه من الحكامات فإذالك الحكمة أن تصير سنة واجبة على الحكام بعده قال ابن العربي المشاورة أصل في الدين وسنة الله في العالمين وهي حق على عامة الخليفة من الرسول إلى أقل الخلق (ومن) كلام على رضى الله عنه لاصواب مع ترك المشاورة ومن الأصول المجمع عليها وجوب تغيير المنكر على كل مسلم بالغ عالم بالمنكرات (وقال) هجة الاسلام الغزالي الخلفاء وملوك الاسلام يجبون الرّد عليهم ولو كانوا على المنابر فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يخطب أيها الناس من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه فقام له رجل وقال والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيفنا فقال الحمد لله الذى جعل فى هذه الامة من يقوم أعوجاج عمر بسيفه ولا شك أن مثل هذا الامام العادل الشديدي في حماية الدين وحقوق الخلافة لو لم ير مدافعا من النمر يعضة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدة ما حمد الله عليه بل كان الواجب رده وزجره (وروى) الغزالي أيضا في كتاب (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) من الاحياء ان معاوية حبس عطاء الناس فقام اليه أبو مسلم الخولاني فقال انه ليس من كذا ولا من كذا أيك ولا من كذا أمك فقال معاوية بعد اسكان غضبه بالوضوء صدق أبو مسلم انه ليس من كذا ولا من كذا أيك فلهوا الى عطاءكم قلت لولا التغيير المشار اليه ما استقام للبشر ملك لا بالوازع ضروري لبقاء النوع الانساني ولو ترك ذلك الوازع فعمل ما يشاء ويحكم بما يريد لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الامة لبقاء الالهال بحاله فلا بد للوازع المذكور من وازع له يقف عنده اما شرع سماوي اوسياسي

* (١٣) *

أوسياسة معقولة وكل منهما لا يدافع عن حقوقه إن انتهت ~~بصكت~~ فذلك
 ووجب على علماء الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات
 ونصب الأورباويون الجالس وحرروا المطابع فلم يغيروا المنكر في الأمة
 الإسلامية تتقيم الملوك كما تنق ملوك أوربا الجالس وآراء العامة
 الناشئة عنها وعن حرية المطابع ومقصود الفريقين واحد وهو
 الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وإن اختلفت الطرق
 الموصلة إلى ذلك وما ذكرناه أشار إليه ابن خلدون في فصل الإمامة من
 مقدمته حيث قال إن الملك لما كان عبارة عن المجتمع الضروري
 للذة وبر ومقتضاء التغلب والقهر اللذان هما من آثار القوة الغضبية
 المركبة في الإنسان كانت أحكام صاحبه في الغالب حائدة عن الحق
 بحجة من تحتها من الخلق لمجمل أيامه في الغالب على ما ليس في طوقهم من
 شهواته فتعسر طاعته لذلك وتجيء المعصية الغضبية إلى الهرج والقتل
 فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكفاية
 ويتقادرون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم وإذا دخلت
 الدولة عن مثل هذه السياسة لم يستقم أمرها ولا يتم استيلائها فإذا كانت
 هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت
 سياسة عقلية وإذا كان فرضها من الله تعالى بشارع يقررها كانت
 سياسية دينية نافعة في الدنيا والآخرة انتهى

(قلت) والنفع المذكور إنما يكون تاما ببقائها محترمة بصونها
 والذب عن حوزتها بمثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أشرنا
 إليه هذا وأنا لا ننكر إمكان أن يوجد في الملوك من يصح من تصرفه
 في الملكية بدون مشورة أهل الحل والعقد وبمجهل حسب الانصاف على

الاستعانة بالوزير العارف النصوح فيما يشكل عليه من المصالح لكون
 لكون ذلك من النادر الذي لا يعتبر لاستناده الى أوصاف قليلة تجتمع
 في انسان وعلى فرض اجتماعها ودوامها له تزول بزواله وجب علينا
 أن نجزم: أن مشاركة أهل المل والعقد للملك في كليات السياسة مع
 جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى
 قوانين مضبوطة مراعى فيها حال المملكة اجلب مخبرها واحفظ له

وبيان ذلك ان حالة الملوك بمقتضى الطبيعة البشرية لا تخرج عن
 صور ثلاث لان الواحد منهم اما ان يكون كامل المعرفة والمحبة لخبر
 الوطن قادر على اجراء المصالح بمراعاة المصلح او يكون كامل المعرفة
 ولكن له اغراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح
 العمومية او يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة ومثل هذه الصور
 الثلاث يقترن في الوزير المباشر ولا يخفى ان لزوم المشورة ومسئولية
 الوزراء في الصورة الاولى لا يطل كامل المعرفة من مقصده المحسن
 بل يمينه حيث ان اراء الجميع متعاضدة على المصلحة كما انه سهل دوام
 الملك في عائلته ولو كانوا من مصادقات الصورتين الاخيرتين الواضح
 فيهما ناكدا المشورة والمسئولية لوجوب المعارضة في الثانية والاعانة
 في الثالثة فبذلك يستقيم حال المملكة ولو كان الوالى أسير الشهوات
 أو ضعيف الراى كما قال المترجم لتاريخ ستورد مل الانكليزى ان رفعة
 شان الامة الانكليزية بلغت الغاية في مدة الملك جورج الثالث الذى
 كان مجنوناً وماذا لك الامشاركة على المل والعقد ومسئولية الوزراء لهم
 وقد سبق الى بعض الاذهان الضعيفة ان تكليف من تحسن سيرته من
 الوزراء فيغير به خلل العبورين الاخيرتين بحيث لا يحتاج لاهل المل
 والعقد

والعقد وهو ظاهر السقوط لان تقديم الوزير للبشارة وتأخيرها عنها يسند
 الملك ولا يظن ان الملك يتقدم من يعلم انه يخالفه بمخالفة معتبرة وعلى
 فرض تقديمه وسيره مسيرة مستحسنة فان ترى ان حال الوزير دائرين
 امرين لانه اما ان يوافق الملك وحاشيته على اغراضهم وشهواتهم مرجحها
 بذلك حظ نفسه . وضرر المملوك في هاته الحالة لا يكاد يحصى . واما ان
 يخالفهم ويأمر من تحته من المتوظفين بما تقتضيه مصلحة البلاد وحينئذ
 فمن اين له هذا الحق وبأى ظهير يستظهر على تلك المخالفة خصوصا
 اذا لم تكن هناك شريعة نافذة تحمي من تحزب حساد الذين غاية
 املهم اضراره وتعطيل تصرفاته المحسنة المأهولة لقوائدهم بكل وجه
 امكنهم ولو بتنفيذ اذنه على غير مقصوده او تأخيرها عن الوقت المناسب
 ليظهر الخلل ويكثر الزلل او بانقضاء جليل حسنة واشهار حقير سبباً له
 لتغيير القلوب عليه ومن دعاء على رضى الله عنه اللهم احفظنى من عدو
 برعائى ان رأى منى حسنة دسها وان رأى سيئة أشهرها ثم اذا خيب الله
 آمالهم بنجاح حى الوزير الماشار اليه فى ادارة المملوك كثر جمعوا الى سلوك
 طريق الوشاية به عند الملك بأن يقولوا انه استبد عليك ولم يبق لك من
 الملك غير الاسم الى غير ذلك من أنباء الفساق التى قد تروج على العاقل
 قبل التبين خصوصاً عند الدول المشرقية فكيف يتيسر للوزير والمحالفة
 ما ذكر أن يجرى ادارة المملكة على مواقع المصلحة مخالفاً لذلك من هو
 المحض والمحكم وما فى هاته الحالة الثانية من العوائق يضطر الوزير
 لمذكور اما الى اختيار الحالة الاولى بالجمارة وسلوك طرق الإدارة
 بحاقبة ذلك وخيمة لعوده بالمضرة على الوطن والملة وعليه نفسه لان
 مستعذاب الموافقة على الشهوة فى الحال الناشئ عنه خراب المملكة

يستعقب مرارة الندامة في المسأل وأما إلى الاستعفاء من الخدمة بالمرّة وهو
 وان لم يكن واجباً لمحفظ ذاته فهو واجب للتخلص مما يتوقع من الموافقة
 على ما يؤل إلى خراب المملكة الموجب لعقاب الخالق ولوم المخلوق إذ
 الإنسان ولو ساع له المخاطرة بنفسه لمصلحة الوطن لا يسوغ له المخاطرة
 بديانته وجمته وما يجب عليه من الطاعة للملك والحبّة للوطن لا يحصلان
 إلا ببذل الجهد في النصيح بجلب المصالح ودرء المفاسد ان قدر عليهما
 وان لم يقدر فيما الامتناع من الموافقة على ما يضر فان لم يفعل كانت موافقته
 مع العلم بما ينشأ عنها من المضرة خيانة
 فبان بهذا ان الممالك التي لا يكون لادارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية
 أهل الحل والعقد خيرها وشرها منحصر في ذات الملك وبحسب اقتداره
 واستقامته يكون مبلغ نجاحها ويشهد لذلك حالة الممالك الأو ربابوية
 في القرون الماضية قبل تأسيس القوانين فقد كان لهم في ذلك الوقت
 من الوزر اعمهم شهرة إلى الآن بتمام المعرفة والمرؤة ومع ذلك لم يتيسر
 لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صور في استبداد الملوك المشار اليها
 لا يقال ان مشاركة أهل الحل والعقد للأمر في كليات السياسة تضيق
 لسمعة نظر الامام وتصرفه العام لانا نقول هذا التوهم يتدفع بمطالعة الاحكام
 السلطانية للاساوردي فانه قال فيه عند بيان وزارة التفويض هي أن
 يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضاءها على
 اجتهاده وليس يمتنع جواز هذه الوزارة فان الله تعالى يقول حكايه عن
 نبيه موسى عليه السلام (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى
 أشد به أزرى وأشركه في أمري) فاذا جاز ذلك في النبوة كان في الامامة
 أجوز انتهى

(قلت) فإذا جازت شريك الامام لوزر التفويض على الوجه المذكور ولم يعد مثل ذلك تنفيصاً من تصرفه العام كان تشريكه مجعاً معهم أهل المحل والعقد في كليات السياسة أجوز لأن اجتهاد الأراء الى مواقع المصواب أقرب ولهذا لما جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المخلافة شورى بين ستة قال ان انقسموا اثنين وأربعة فكوفوا مع الاربعة (مبلا منه) أي الأكثر لأن رأيهم الى المصواب أقرب قاله السيد السند وانتم اودا فكوفوا في الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف على ان المولى سعد الدين في شرح العدة ثد لم يمنع المشاركة في تصرفات الامامة وقصر منع التعدد على منشا الفساد حيث قال في أثناء بحث الامامة غير الجائز هو نصب امامين مستقلين تحت طاعة كل منهما على الانفراد لما يلزم عليه من امتثال احكام تضادة وأما الشورى فالشكل بمنزلة امام واحد انتهى أي لأن تعدد الأشخاص لا ينافي وحدة الامامة التي مدارها على وحدة الامر والنهي وقد سلم كلام السعد معشوه كالفاضلين عصام الدين وعبد الحكيم وفرزه الخبالي بقوله وقد يجاب أيضاً وبالمجمله مكاهم معترف بهمة كلام السعد في نفسه وظاهره من ثد احرورية جواز الشورى في كليات السياسة بالمعنى الذي أشرف اليه ذي دون الشورى في سائر التصرفات ثم ان الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضيق لدائرة خطة الامامة وهو تصرفها باعتبار ان نظر أهل المحل والعقد بمنزلة نظر الامام ومراعاة كونه مظهراً له استمداده بتقسيته وادارته مما جاب استنبذه من التصرفات التي لا تقتضى مشاركة كإجراء الخطة السياسية والتجربة مع الاجانب ونصب رباب المخطط وتأخيرهم وتنفيذ سائر الاحكام ونحو ذلك من التصرفات

التي هي محل وسدة الآخرة هناك شاهد آخون كلام الامام ابن العربي
فانه قال في المغام التي تؤخذ من الناس عند فراغ بيت المال انها
تؤخذ جهرًا لاسرا وتنفق بالعدل لا بالاستئثار ويرأى الجماعة
لا بالاستبداد انتهى ولزيادة البيان نستوضح ذلك بمثال وهو ان
مالك البستان الكبير مثلاً لا يستغنى في اقامته وتدير شجره عن الاستعانة
بأعوان يكون لهم مزيد معرفة بأحوال الشجر وما يصلحه أو يفسده
فاذا اتفق ان رب البستان أراد قطع شئ من فروع شجره لما رأى
في ذلك من تقوية الاصول ونمية ثمارها فلم يوافقه أعوانه على ذلك
هل منهم من تضي قواعد الفلاحة ان القطع في ذلك الوقت مما ينشأ عنه
موت الشجرة من أصلها فتعطيل ارادة المالك في ذلك لا يعد تضييقاً
لسعة نظره وعموم تصرفه في بستانه وقد يكون مستند الأعوان في تعطيل
ارادته أمراً شرعياً كما اذا اراد بيع الثمرة قبل بدو صلاحها مثلاً
فأشاروا عليه بأن ذلك لا يرضاه خالق الشجر الذي هو المالك
المحقق فيلزمه الرجوع لرأيهم في المثالين والاتوجه اليوم اليه واستحق
ان يحجج عليه وهل يقال حينئذ ان ذلك تضييق على رب البستان بل ان
التوسعة عليه مضادة للحكمة الالهية في ايجاد العالم واستعمار أرضه
ببني آدم هذا مع ان منفعة البستان مختصة بربه أما اذا كانت له
ولغيره أو متزلة فيها كما قال عمر رضي الله عنه كمنزلة والى اليتيم فاحرى
ان لا يتوهم ان ذلك تضييق عليه ومعلوم ان تصرف الامام في احوال
الرعية لا يخرج عن دائرة المصلحة وان القيام بمصالح الامة وتدير
سياستها مما لا يقدر لكل احد فتعطيل الارادة حينئذ انما يقع في شئ
خارج عن دائرة التصرف المموج له فتجرب بما شرحناه اندفاع

ذلك القيسل وأنه لا مانع من التثريبك على الوجه المذكور ومن لاحظ
جانب المقضي كما لاحظته الشيخ ابن العربي فيما قدمناه عنه وهو
ملحظنا في جميع ما أسلفناه لم يتوقف في الجزم بتعيينه لاسيما في هذا
الزمان الذي قل فيه العرفان وكثر الطغيان وقد كانت وقعت
بين وبين أحد أعيان أوربا مكالمة اسهب فيها بمدح ملوكهم
وذكر مآله من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال أنه متعبد بطبعه
وعقله عن سلوك غير منهاج الصواب فقلت له كيف تشاؤون في الحرية
السياسية وترومون مشاركتهم في الأمور الملكية والحال انكم
تسلمون له من الكمالات ما لا يحتاج معه الى المشاركة فأجابني بقوله
من ضمن انما بقاءه مستقيما واستقامة ذريته بعده

وما يناسب سوقه هنا ما ذكره المؤرخ الشهير تيارس أحد أعضاء
مجلس النواب بفرانسا الآن وكان وزيرا للملك لويز فليب في آخر
تاريخه المشهور عند ذكر عواقب الاستبداد وان العمل بالرأى
الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف بعد ما ترجم
لنابوليون الاول بأوصافه الخاصة والمحقة في السياسة بافراد الرجال
الذين جاد بهم الدهر في القرون الماضية حتى وصفه بهمة اسكندر
الرومي وقصر الر ومانى وذكره أنيبال الافريقى ومعارفه الحرية
الى أن قال مخاطبا للفرنسيس تعالوا نمنع النظر في أفعال هذا الملك
التي هي في الحقيقة أفعالنا فيستفيد منها من كان جنديا كيف ينبغي أن
تقاد المحيوش ومن كان من رجال الدولة معرفة كيف ينبغي ان
تكون ادارة المملكة وكيف ينبغي ان يرتفع شأنها بدون خروج
من دائرة التواضع والرفق اذ المعاملة متى لم تكن مهيوبة برفق

وقناعة لا تحصل وربما يفضى ذلك الى أسباب الاضطلال كما
 افضت اليها سيرة المذكور والذي هو اقل البتر قناعة فيما بحملة نستبر
 بقلطاته فتجنيها ثم نستفيد معاشرا بناء لوطر تربية أخيرة لا يسع نسيانها
 وهي انه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملوكة لانسان واحد بحيث تكون
 سعادتها وشقاوتها بيد. ولو كان اكل الناس وأرجعهم مقلوا وأوسعهم
 علما ونحن وان كنا الصانعة فعل نابوليون في افتكك فرنسا من
 أيدي الدير كنوار بعد ان كانت اشرف على الضليع في أيديهم لسكن
 يرى ان وجوب استخلاص المملوكة من تلك الايدي الضعيفة الخامسة
 لا يكون حجة في اسلامها اسلاما مطلقا ليد قاهرة متورثة لاتبه الى شيء
 ولو كانت هي اليد المتصرة في ريفلي ومرنغو على انا نقول ان كان
 هناك أمة تعذر عذرا مافي تسليم أمرها لشخص واحد فلان يكون
 غير الامة الفرنسية في ذلك الوقت اعنى سنة ثمانمائة وألف
 حين استرأست نابوليون المذكور عليها والناس اذ ذاك فرضى
 لاسراة لهم ولم يكن المشير عليها بذلك قاسدا بحرق وتخويفها لاجاها
 الى قيود العبودية بل كان مخوف متحققا بالمشاهدة فراحصر تلك الامة
 على ألوف من النفوس البريئة صرحت بالجزرة وألوف كذلك خنقت
 بسجون الدير وألوف أغرقت بؤدى لوار وبالجملة فقد دلى بأولئك
 المأخذين من أفعال المتوحشير أمر قطع روعهم وأرعد فرائصهم
 ولم يزلوا بعد سكون تلك الثورة الامامية رائجين بين لسيامين المواجهين بقطع
 الرؤس وهم جماعة الدير كنوار وبين الجبال المتفر بين عن وطنهم
 وهم شعبة الملوك الذين كانوا برومون بارافقة الدماء ارجاع فرنسا الى
 الحالة القديمة التي كانت قبل الثورة معصا مارأيتهم في انشاء ذلك
 الاضطراب

الاضطراب من ظهور سيف الاجنبي تهتدا فيبتاعهم في نيج الهرج
اذ اقبل من المشرق الشاب المتصور الذي ذلت له صعاب الامور
العاقل المتواضع المغري باستمالة قلوب البشر وهو نابوليون
المشار اليه افتراهم والحالة هذه لا يعذرون في القاء زمامهم بيد
المذكور بل

اذ لم تكن الا الاسنة مركبا * فلا يصح المضطراب اركوبها
ومع ذلك فلم تقص الاسنات قليلة اذ انقلب ذلك العاقل مجنونا مجنون
غير مماثل مجنون ارباب الثورة والمجنون فنون فانه تقرب بليون من
النفوس في ميدان الحرب وجل اهل اوربا على التعصب على فرنسا
حتى بقيت مغلوقة غريقة في دماها مملوكة من نتائج اتصارها هذه
عشرين سنة بحيث صارت على حاله في لها ولم يبق لها ان تستقر بعد
ذلك الا ما كان مزدحما فيها من بذور التمرد الوقتي فمن كان يظن ان
عاقل سنة ثمانمائة والى حين في سنة اثنتى عشرة وثمانمائة والى
نعم كان يمكن توقع ذلك لو اعنوا النظر في ان الذي له القدرة التامة
بحيث يستطيع ان يفعل كل ما يريد معه داء لادواء له وهو الشهوة
الداعية لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحا اذا تقرر هذا فعلى ابناء الوطن
ان يتاملوا سيرة المذكور ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطته
والاهم امر واحد وهو ان لا يطق امر الومان لانسان واحد كائنا من
كان وعلى أى حانة كان وقد شغمت هذا التاريخ الطويل المستوعب
احوال نصرنا وانهم زامنا بهذه النصيحة بل النصيحة الصادرة عن
عظيم فؤادى غير مشوبة برباه راجيا بلوغها الى قلب كل فرنساوى
يتيقن جميعهم انه لا يلقى بهم بذل جريرتهم الى احد كما لا ينبغي لهم

* (٢٢) *

الافراط فيها حتى تنتكح حرمها انتهى المراد منه وفي حكمة أرسطو ان
من الغلط الفاسد ان تعوض الشريرة بشخصية تصرف مقتضى ارادته
فاذا تأملت كلامي هذين الحكيمين وما تضمنته أولهما من المشاحة
في الاستبداد مع كون المستبد من المشهود لهم عز يد العرفان والاهلية
نعرف بذلك ما جبلت عليه نفوس القوم من حب الحرية والامتناع من
ظلم الملوك كما يشهد به كلام سيدنا عمر و ابن العاص رضي الله عنه في
حديث مسلم الذي رواه المستورد القرشي رضي الله عنه عنده فقال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تقوم الساعة والروم أكثر
الناس فقال عمرو ابصر ما تقول قال أقول ما سمعته من رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال لئن قلت ذلك ان فهمم لخلال أرباع النهم لاحت الناس
عند فتنة وأسرعهم افاقة بعد مصيبة وأوشكهم كربة بعد فرة وغيرهم
لمسكين ويقيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك
هذا وقد كانت الأمة الاسلامية وقت احترامها للاصول الشريعة
المشار الى بعضها سابقا للمكانة القائمة من الثروة والثروة المشوكة المبروتين
بسياج حسن تدير أمرائها وعدلهم واستغلايهم رضاء الله تعالى بتعمير
أرضه نقل صاحب كشف الظنون ان بعض العلماء قال لو علم عباد الله
رضاء الله في احياء أرضه لم يبق على وجه الارض موضع خراب
ومن حكم أرسطو العالم بستان سياجه الدولة والدولة سلطان تحيابه
الاستة والانتقاسية يعومها الملك والملك نظام يعضده المجدد والمجدد
أعوان يكلفهم المال والمال رزق تجمع الرعية والرعية عبيد يكفهم
العدل والعدل مألف وبه قوام العالم فقد تضمنت هذه الكلمات
الحكمية الاشارة يجعل العالم بستانا الى تشبيه الرعية بشجر ثمرته المال

وطارسة

وحارسه الجند وان استقامت الدولة بها حياة السنة السياسية التي هي مادة
 حياة بستان العالم ومن آثار ثروة الامة الناتجة عن احترام اصول العدل
 ما حكاه المقرئ في المخطط قال لما سار المأمون في قرى مصر وكان يقيم
 بالقرية يوما وليلة اجتاز بقرية يقال لها طاء النمل ولم يقيم بها فتوسلت
 اليه عجوز كبيرة بالقرية في الاقامة فأسعفها واحضرت من لوازم نفقة
 الخليفة وجنوده ما عظم لديه امره واهدت له حين دزم على الرجل عشرة
 أكياس من سكة الذهب كلها ضرب عام واحد فازداد تعجبه وقال
 ربما يهزيت ما لنا عن مثل هذا ورد عليها ما الهارقا بها فلم تقبل
 وقالت هذا مشيرة الى الذهب من هذه اى طينة الارض ثم من عندك
 يا امير المؤمنين وعندى من هذا شئ كثير فقبله واعظم جازتها انتهى
 بتصرف واختصار (وحكى) ايضا ان خراج مصر بلغ في زمن الخلفاء
 الراشدين أربعة عشر مليون دينار وقد رها بسكة الوقت نحو سبعمائة
 مليون فرنك وهذا المبلغ دخل اليه واحدة مع الانصاف في الجباية
 وحكى ابن خلدون في المقدمة ان المحمول الى بيت المال في أيام الرشيد
 العباسي بلغ الى سبعة آلاف وخمسمائة فنطار ذهباً وقد رذل ذلك تقريبا
 ألف وأربعمائة مليون فرنك وهذا دون ما يؤخذ من العين ويدل على
 القوة العسكرية الناتجة من عدل الشريعة واتحاد الامة ما تيسر لهم
 من الفتوحات التي يشهد بها المؤرخون من الفريقيين وبصدقها العيان
 ففي قرى العيون الذي ترجمه الشيخ احمد الزراني المصري من اللغة
 الفرناوية وعدم حسنات المطبعة المصرية ان الاسلام فتح في ظرف
 ثمانين سنة من الاقاليم أكثر مما فتحه الرومان في ثمانية قرون وبما
 نقلناه يعلم ما كان للامة الاسلامية من نمو العمران وسعة الثروة والقوة

الحرية الناشئة عن العدل واجتماع الكلمة واخوة الممالك واتحادها
في السياسة واعتنائها بالعلوم والصناعات ونحوها من المسائر العرفانية
التي ظهرت في الاسلام ونسج الاورباويون على منوالها وشهد المنصفون
منهم بفضل التقدم فيها للامة الاسلامية

ففي تاريخ دروي وزير المعارف العمومية بفرنسا الا ان مامعناه بينما
أهل أورباناثون في دجى المجاهلة لايرون الضوء الامر سم الخطا اذ
سطع نور قوى من جانب الامة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات
واعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند
ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطة وقرطبة مراکز عظمى لاثرة
المعارف ومنها انتشرت في الامم واغنى عنها أهل أوربا في القرون المتوسطة
مكتشفات وصناعات وفنون اعلمه بأني بيانها وفيه يقول كانت الآداب
قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بالمتين المجير به في اليمن
والقرشية في الحبشة وبالاخيرة جاء القرآن (ولا يخفى عليك ان الذي
يتقابل المجير به هو الحضارة وان وقع الاجماع في القراءة على خصوص
القرشية) ولذلك اشتهرت واستمر حلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب
العلم والديانة وما دخلت المحمة في اللسان الابدنعول الامم في الاسلام
وتطاول العنين * ولغة المذكور من الاتساع وسعة المحال ما يخفى
على من فيها لاسيما في الاشياء التي بها قوام المعيشة في البادية أو تتكرر
دويتم لها او تكرحاجتهم اليها فمديكون الشيء الواحد عدة اسماء
يا اعتبار عدة مصفاته واحواله وبكثرة الترادف عندهم اتسمت لهم
دوائر الآداب الشعرية اذ يقال ان للعمل عندهم ثمانين اسما وللشعبان

ماتنين وللاسد خمسة مائة وللجمل ألفا وكذا السيف ولذا هية نحو أربع
آلاف اسم ولا جرم ان استيعاب مثل هذه الاسماء يستدعي حافظة قوية
والعرب من قوة الحافظة وحدة الفكر ما لا يسع احدا انكاره فان
مشاهيرهم حماد الراوية الذي ذكر يوما للخليفة الوليد انه ينشد له
في الحال مائة قصيدة والقصيدة من مشرين الى مائة بيت فتعب المستمع
قبل المنشد الى ان قال ولم يكن للعرب في اول الامر الا تلك الاكاديب
ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالامم الذين سبقوهم
في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف فآخذوا من اليونان تاليف ارسطو
وشروحها يامعان نظروا لكن من سوء الحيت لم يأخذوا الفلسفة من كتب
اليونان الاصلية وانما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة اهل الشام فهم
ترجموا المترجمة فلذلك لما نقلها الفلاسوف العربى حفيد بن رشد الى
اوربا في القرون المتوسطة وجدها من التخرىف اكثر مما وقع فيها أولا
واما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى والفضل في ذلك
للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية وفي اوائل
القرن التاسع المسمى امر الخليفة المذكور طائين من فلسفية
بغداد ان يقيس مسافة درجة واحدة من خط الطول بصراة سنجار
وبرتاها ليثبت بذلك تكوير الارض بالمشاهدة وقد تبين ذلك
باختلاف ارتفاع القطب الشمالى عن طرفى الخط المقيس وقد شرح
العرب كتاب اقليدس وهذو ازيح بطليموس وحرروا حساب
تعريج منطقة البروج كما حرروا الفرق بين اوقات الاعتدال والفرق
بين السنين الشمسية والزمنية فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية

عدة دقائق واغترعوا للتحرير آلات جديدة الى غير ذلك مما يدل
على ما للعرب من قابلية العلوم الى رياضة ومنهم حازت مدينة مرقند
قبل أوربا بكتير محل رصد عجيب وأما ما يذنب للعرب من اختراع الحبر
والقالبه والارقام المحاسبية المشهورة عندنا بالارقام العربية فلم يثبت بل
انما تعلموا ذلك مع فلسفة ارسطو بالتلقى من غيرهم وهي من العلوم التي
وجدوها يأسكندرية ويمكن انهم نقلوا البناء على ذلك الوجه البوصلة
اي بيت الابرّة والبارود الذي تعلموه من أهل الصين كما يعرف لهم أهل
أوربا بزيادة اختراع السكاك من القماش وبذلك كثرت الكتب ودنت
أسعارها وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده وقد اشتهر العرب
ايضا بعرفة الطب الذي كانوا تلقوه من كتب اليونان ولابن رشد تعليلات
عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر ومن فلاسفتهم عدة
أشخاص صاروا في وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير مثل أبي علي بن
سينا المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرية وابن رشد المذكور
وقد بلغوا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم في ذلك الوقت يرغبون
في معالجتهم اياهم كما يحكي ان بعض ملوك قسطنطينة كان اعتراه مرض
الاستسقاء فاشتفى أن تكون معالجته بقرطبة وحصل من لطف الخليفة
على الاذن في أن يذهب ويداويه المسلمون ومن ما ابرز حكماء العرب
حكيفة تقطير المياه واستعمال الراوند ودوية كثيرة ومن العلماء
التي لهم الفضل فيها الجغرافيا وسبب تقدمهم فيها ان اتساع فتوحاتهم
ورغبتهم في الاسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم أنجت لهم المعرفة بكتب
من البلدان الشاسعة التي لم يصل اليها أهل أوربا ونسوها بعد ما كانت
معروفة لهم ومن مشاهيرهم في هذا الفن أبو القداء والمسيودي

والادريسي وهذا الاخير هو الذي استدعا دوجير ملك صقلية وألف
عنده كتابه الغريب الذي سماه نزهة المشتاق وأما علم التاريخ فمن
تأليفهم فيه تاريخ المسعودي وابي الفداء المذكورين وتاريخ المقرئ
غير انها توارى في محضمة بأبناء جنسهم وقل أن يوجد جسد بها السكر يتيك
بمعنى انهم لا يسبرون منقولاتهم بمسار العقل كما أشار الى ذلك ابن
خلدون ولا يخرجون عن دائرة الواقع المجردة ولا سبب لذلك الا ما حكاه
(سديو) في تاريخه الا أن ذكره من أن وجود التسلط من الملوك
في بلدان المشرق هو الذي كان يمنع المؤرخين من شرح جميع الوقائع
بيان أسبابها للخطر الذي يلغفهم في حكاية الحق وأما صناعة
(الارثكتور) أي هندسة البناء في اصطناع الهياكل فلم يشغل
العرب منها الا بما يرجع الى اتقان الابنية حيث كانت شريعتهم تمنع
التصوير على ان البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة فالاصل
عندهم في الاقواس المرفوعة على الاسطوانات أن تكون أكبر من نصف
دائرة وهذا الشكل أخذوه من أبنيّة البرنثيين وهم أمة من اليونان
واعترض العرب عن الصور الذهبية والمجسدة التزيين بالنقش المسمى
عندهم بنقش حديدية وكان في الاصل رسوما لها مدلولات ثم صار مجرد
خطوطا متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التي يمكن ان يصور منها اشكال
جيدة ظريفة وكثيرا ما تعجب من اتقان تلك الحروف فحين تراها على
الزراية والاقنعة المشرقية ومن ما ترا العرب اصطناع المجواري والقوارات
والتزيين بالذهب والاحجار الثمينة كالمر التي كانوا يجلبونها من المشرق
ومن مقاطع اسبانيا المكنوية ومن أشهر أبياتهم الجامع العظيم الذي بناه
بدارجن الاول بقرطبة وكان به ألف وثلاث وتسعون اسطوانة وأربعة

آلاف وسبع مائة قنديل ثم قصر الزهراء الذي لا يتأخر عن الجامع المذكور
 في العظم وقد بنى عبد الرحمن الثالث على شاطئ الوادي الكبير وبه
 ينبوع عظيم يفور منه شبيه بآفة من الزئبق ثم ينعكس في قصعة من المرمر
 ومن بديع أبنيتهم جراء غرناطة التي هي في آن واحد قصر وحصن وبها
 عدة أمور تصلح ان تكون مثالا للآفة البناء وحسنه خصوصا وسطها
 المسمى بيطحاء الاسود (وأما) التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها
 في سائر الاوقات ثم لما امتدت سلطنتهم من اليربني وهي جبال بين
 فرنسا واسبانيا الى جبال هملای التي بأقصى شمال الهند صاروا اكبر
 تجار الارض (وأما) الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم
 ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة
 تحت شمسهم المحرقة فسيرتهم في ذلك السائر بها الى الآن أهل بالنسبة
 وروضة اسبانيا صالحة ان تجعلها أسوة تقتدى بها في فلاحتنا الفرنسية
 وأما الصناعات فان العرب تعلموا جميعها من بلاد الاندلس وماندين
 العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها وكفاهم شهرة في ذلك سلاح
 طليطلة التي كانت تحت سلطانهم باسبانيا وحريرات غرناطة والمجوخ
 الازرق والاحضر بمدينة (كونسة) والسروج والمروج والمجلود
 بقرطبة وكان أهل أوربا يشترون هذه المصنوعات بأعلى ثمن ويتنافسون
 فيها مع شدة زفرتهم من أهلها المخالفين لديانتهم وبالجمله فقد بلغت اسبانيا
 من العمران الى هذه الشهرة في القرون الاولى من مدة الخلفاء حيث كانت
 الفتن عنها أسكن من المشرق وقد تزايدت موارثها الى أن صار بمدينة
 قرطبة وحدها نحو مائتي ألف دار وستمائة جامع وخمسين مارستانا وثمانين
 مكتبا وعموما وتسعمائة حمام ومليون نفس فهناك برنامجا اجاليا للتمدن

الذي

الذي نشره العرب من شاطئ تاج وهو واد كبير بأسبانيا الى وادي هندوس بالهند تمدنا يكاد يخطف نوره الابصار ولكنه لسرعة غموه كان معرضا للعقاب قال وقد نأور بأل يوم كان أبطاف النخول ولكنهم حصلوا بعد انقلابات وكسوفات على ما يمكن به طول البقاء المعتاد في كل بطى النخول وقال في بيان امتداد ملك العرب قد امتد ملكهم في طرف مائة سنة من ظهور الاسلام مثل ما تمتد عظيم الخلقة فاتحنا ذراعيه لالة طائى فيبلغ من اقصى الهند الى جبال بير بنى الكائنة بين فرنسا واسبانيا وقد امتداد هذا الملك من سبع عشرة الى ثمان عشرة مائة فرسخ ولم يبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية وقد استمرت الديانة واللسان واحكام القرآن نافذة في غالب البلدان التي فتحوها واغتصبت منهم أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات ومنايع وعلوم ما وان كان منها ما اخذوه من غيرهم لكن لهم الفضل في تهذيب ذلك وتحليده بعدهم ثم في النصف الثاني من القرن العاشر المسيحي توجه الراهب الفرنساوى جروير الذي جلس على الكرسي البابري باسم سلفستر الثاني الى مسلي اسبانيا وقرأ هناك علم الجبر والفلك واجرى لاهل اوربا النصرانية منهم لاجسديد من معارف العرب وجعل خزانة جليله من الكتب وصنع كرتي السماء والارض ٥١ ما يمكن تلخيصه من كلام الوزير المشار اليه وفي تاريخ العرب لسديو مدرس علوم التاريخ باحدى مدارس فرنسا واحد اعضا جمعية المعارف بهما مامناه اني منذ مدة طويلة تنفذ على العشر بن بدنة شغل ببيان عزايا العرب على غيرهم من الامم فيما يتعلق بالعلوم والتقدم في التمدن مدة قرون متطاولة من ايام اليونان بالاسكنة هدية الى ايام العصر الحجري فلزماني ان اجمع ما تيسر لي من الادلة على عظم هذه الامة التي لم يعرف

قدرها الى الآن واعرضه على ما يجري من تكلم عليها في أسس تاريخها
 لها وعموما وان كان ذلك مما لا تنفي به طائفة انسان واحد وقبل الشروع
 في ذلك على وجه الاختصار يلزمني ان أنذب الناس الى التأمل في احوال
 هذا الجنس الذي كان كثير الفتوحات عديم الامتسلا عليه في سائر
 معازيه ولم يزل مدة اربعة آلاف سنة على حال واحد في اكتساب
 الفضائل والزيما التي تميز بها على غيره والترتيب والعدادات الخاصة
 به ومن حجب ذلك ان الوقت الذي كانت فيه بالممالك القديمة في مبدأ
 تكويتها ذات حيرة كان هذا الجنس اذ ذاك قائما بنفسه قادر على
 الاغارة على غيره فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة
 عشر قرنا قبل التاريخ المسيحي ثم بعد ان رجع الى حدوده الاصلية دافع
 عن نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام وامتنع من تسلط قبرس واسكندرو
 ودوام في استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الديار وبعد ظهور
 (النبي صلى الله عليه وسلم) الذي جمع قبائل العرب امة واحدة بقصد
 مقصود واحد اظهرت للعيان امة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر هاج
 في اسبانيا الى نهر (الفاتيح) في الهند ووفعت على منار الاشادة اعلام
 التمدن في اقطار الارض ايام كانت اوربا عظيمة بجهالات اهلها في القرون
 المتوسطة ~~كما~~ أنها نبت للمرة ما كان عندها من التمدن الروماني
 واليوناني وبعد انقسام ممالك الاسلام لم تستطع العلوم والآداب التي
 نتجت على ايديهم فان خلفاء بغداد وقرطبة ومصر وان ضعفت قوتهم
 الملكية والسياسية فان سلطنتهم الروحانية لم تزل قوية بمطاعة في كل جهة
 لاجتهادهم في توسيع دوائرها بقدر طاقتهم وقد نال النصراري الذين
 استطاعوا اخراج العرب من اسبانيا بالخطا معهم في الحروب بعد ارفعهم
 وصنائعهم

وصنائعهم واختراعاتهم ثم الغل والترك الذين تسلطوا على آسيا
وتداولوها كانوا خدمة في العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب والى
الآن لم نطلع في اوربا على الاصول التي تبين لنا عادات العرب اطسلاعا
تافها اذ لم يعرف عندنا من توارىخهم الا توارىخ ابي الفداء وابي الفرج
والمقرئ بنزي وابن الاثير ونبذة عن تارىخ ابن خلدون ونجهل بالمرّة
توارىخ كثيرة نوذلو نجدهم يترجمها للناس وان كان المقدار الذي حصل
عندنا كافيا في رد غلط من غلط من اهل اوربا في شأن العرب ثم اني
ذكرت في تارىخنا هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الاولين وبتارىخ دولة
بنى امية بدمشق وقرطبة وبتارىخ دولة بنى العباس ببغداد والقاطنين
بمصر وبانقسام الممالك الاسلامية بالشرق بعد تسلط الترك والغل عليهم
فيمتد جميع ذلك بقدر العاقبة وزدت عليه شيئا لم يوجد في التوارىخ
السابقة وهو برنامج التمدن العربي الذي قد توشحت عروقه في الدنيا
القديمة واستمرت آثاره ظاهرة الى الآن لكل من يبحث بالمجد عن اصل
المعارف منسوبة في اوائل القرن الثامن من تارىخنا تبسّط ولوعهم
بالفتوحات بالمجسّد في المعارف والعلوم فكانت اذ ذلك قرطبة ومصر
وطليطلة وفاس والرقّة واصبهان ومصر عند تنسابق في ميدان العلوم مع
بغداد فتحت بنى العباس وترجت في تلك المدة حكمتاب اليونان وقرئت
بالمدارس وشرحت وسرت حركات عقولهم في جميع مواد المعارف
الانسانية فنتج عنهم الاختراعات الغربية ماشاع صيته في اوربا فبين
بلاشك ان العرب هم اساتيد نابلائسكارل لدونهم جمعوا الادوات
المؤسسة عليها توارىخنا المتوسطة وبدؤا بكتابة الرحلات واختروها

التأليف في تاريخ وفیات الايمان ووصلوا في صناعة اليد الى غاية
لا تحدد بقیه آثاراً بذیعتهم مما يدل على اتساع معارفهم وكذلك اخترعوا
الغریبة تریدیاناً لفضائلهم التي لم ينزلوا الى الآن منزلتهم التي يستحقونها
بسببها فان علوم الفيزياء والطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء والفلاحة
لما جاءت في ايديهم ازداد فيها الغريب مع كونها من المحسوسات التي
لا تصرف لها همهم صرفاً تماماً فكيف بالعلوم العقلية التي اجتهدوا فيها
اجتهاداً يفوق الحد من مبدأ القرن التاسع الى انتهاء القرن الخامس عشر
ثم نقول ما نسبة ما عرفناه الاّن منهم يبحثنا الى ما بقي مجهولاً لنا من ذلك
وبالجملة قال العرب هم منبع معارفنا ولم نزل الى الآن نطلع على اشياء من
مخترعاتهم التي كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم ثم قال في شأن
التمدن العربی انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين
سائر الامم وانقضت بسببهم صحائب البربرية التي امتدت على اوروبا حين
اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع
العلوم القديمة ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها بل
اجتهدوا في توسيع دوائرها وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها
ثم استشهد بقول ابي كنندره مبلط ان العرب خلقهم الله ليكبروا واسطة
بين الامم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات الى الوادي الكبير بامبانيا
وبين العلوم واسباب التمدن فتساولتها تلك الامم على ايديهم لانهم
بمقتضى طبيعتهم حركتهم اختصاصهم أثرت في الدنيا تأثيراً لا يشبهه بغيرهم فكانوا
في طبيعتهم محسناً للفقير لبني اسرائيل الذين لا يطيقون خلطة احد من الناس
فيخالطون غيرهم من غير ان يحتلطوا به ولا يتبدل طبعهم بكثرة الخلطة

* (٢٢) *

ولا يفسون اصلهم الذي ترجوا منه وما اخذت أم المانيا في التمدن
الا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب فانهم كانوا يميلون التمدن
معهم فحينما حلوا حل معهم فيثبون في الناس دينهم وعلومهم ولغتهم
الشريفة وتهذيباتهم واشعارهم الشهيرة التي هي اساس بني عابيه
للمسنفر والتر بدور اشعارهم ثم قال بعد ذلك ونعود الآن فنقول انه
ثبت عندنا باسمه صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب في ذلك
الوقت الذي وصل صيته الى اوربا النصرانية وهذا حجة على انهم كما قال
غيرنا ونحن نعرف به اساتيدنا ومعلمونا انتهى المقصود منه

ثم ان الدولة الاسلامية اخذت في التراجع لما انقسمت الى دول ثلاث
الدولة العباسية ببغداد والمشرق ودولة الفاطميين بمصر وافر بقيمة
ودولة الامويين بالاندلس ثم تكاثرت الحروب الداخلية وانقسمت
تلك الدول خصوصا الاندلسية فانها صارت ملوك طوائف وتحقق فيهم
قول القائل

الغاب سلطنة في غير موضعها * كالحري يحكي انتفاخ صولة الاسد
وموجب ذلك التفرق تعارض الاغراض والشهوات من الامراء والموار
الذين لم يعتبروا ما في الانقسام من المضار على الجميع حتى نشأ عن ذلك
خروج الاندلس من يد الاسلام

و وقع من الخال في بهية الممالك ما تنفاهم ضرره لولا ان ثلاني الامر بتأييد
الله سلاطين آل عثمان الكرام فجمعوا غالب الممالك الاسلامية تحت
وطاية سلطنتهم العادلة التي تأسست سنة ستمائة ونمى وتسعين من الهجرة
النبوية فتراجع للامة عزها بحسن تدبيرهم واحترامهم للشريعة المصونة

بحفظ حقوق الرعية وبفتحواطم الجلبلة المذكرة لفتوحات الخلفاء،
الراشدين وارتقا في سلم التقدم خصوصاً في مدة السلطان سليمان ابن
السلطان سليم في أوائل المائة العاشرة حيث يادرأقطع الذرائع التي توقع
بسببها وقوع الخلل في المجالك بمارتبه من قانونه النافع الذي استعان فيه
بالعلماء العاملين وعقلاء رجال دولته وجعل مداره على اناطة تدبير الملك
بعدة العلماء والوزراء وعكبينهم من ثعقب الامراء والسلاطين ان حادوا
وذلك ان ملك الاسلام مؤسس على الشرع الذي من اصوله المشار اليها
سابقاً وجوب المشورة وتغيير المنكر والعلماء اعرف الناس به كما ان
الوزراء اعرف بالسياسة ومقتضيات الاحوال فاذا اطلع العلماء
والوزراء على شئ يخالف الشريعة والقانون المخادم لها فاعلوا ما تقتضيه
الديانة من تغيير المنكر بالقول أو لافان افاد حصل المقصود والا خبروا
اعيان المجندين بأن وعظهم لينفع وبين في القانون المذكور ما يؤل اليه الامر
اذا هم السلطان على ان ينفذ مراده وان خالف المصلحة وهو انه يخلع
ويولي غيره من البيت الملكي واخذ على ذلك اليهود والمواثيق من العلماء
وجال الدولة واستمر العمل على ذلك فكانت منزلة العلماء والوزراء
بالدولة بمقتضى هذا القانون في الاحتساب على سيرة السلاطين كمنزلة
وكلاء العاقبة في اوربا الا اني يسانهم بل هي اعطاهم باعتبار ان الوازع
الديني الداعي الى الاحتساب متأيد بالوازع الديني عندنا فبذلك
القانون المشار اليه استديم نجاح الدولة وحسن سيرتها

ثم انها اخذت في التأخر والنقص لما قصرت في اجراء المصالح الملكية على
مقتضى الشرع والقوانين السياسية وعدمت الصرى في انتخاب ارباب
المخطاط المعبرة فتصرف بعضهم بحسب الفوائد الشخصية لا باعتبار

مصلحة الدولة والرعية الى أن دخل في عسكرة الانكشارية من افسد حسن نظامهم ونخلط طاعتهم حتى تداخلوا فيما ليس لهم من احوال الملك وحبروا راحة السكان بظلمهم المتنوع بعد ان كان يضرب المثل بطاعتهم كما يضرب بشياعتهم في ميادين الحرب فتشأ من مجموع هاته الامور وأعمالها الاضطراب في المملكة واعتقم ولادة الممالك البعيدة الفرصة في الامتناع من الانقياد لأمير الدولة واطلقوا امته الاغراض والشهوات والتجأ الكثير من اهل النقة الى الاحتماء بالاجانب لان الانسان اذا انقطع أمه من حماية شريعة الوطن لنفسه وعرضه وماله به سهل عليه الاحتماء بمن يراه قادراً على حمايته وورعاً بما يسعى في الاسباب التي يمكن بها تسلط حاميته على المملكة خصوصاً ان لم يكن بينه وبين الدولة اتحاد في الجنس والديانة وبمثل هاته المضار الناشئة عن تصرف الولاة بدون قيد شرعي اوسياسي تيسر للاجانب التدخل في احوال المملكة وافساد سياستها باسباب اغراضهم حتى نشأت حروب اهلية في عمدة جهات من المملكة دامت مدة طويلة واقتت نفوساً واموالاً كثيرة وتسبب عنها خروج ممالك معتبرة من يد الدولة ووقع من الخلل في باقيها ما عظم ضرره لولادته المرحوم السلطان محمود وولديه المرحوم السلطان عبد المجيد والمؤيد السلطان عبد العزيز دام عزه بتعويض الاول عساكر الانكشارية والعسكرة النظامي وقطع دابر أمراء الايالات المهمة عندهم الداري فانقطعت بذلك المظالم الناشئة من ذينك الفرقين وضبط الثاني لسياسات الشرعية بالتفجيرات الخيرية التي هي أساس تصرفات الدولة في الحال باعانتهم ورجال الدولة وعلماؤها لما بين سنة الف ومائتين وخمسين ثم باجتهاد الثالث أبيه الله في تمشيتها ونهـ ذمها واصنافه

ما تظهر لياقته بالاحوال بمقتضى خبريها كالقانون الذى رتبته أخيرا
 فى ادارة مصالح الايات الذى يؤمل منه مصالح جمة وقد كانت العامة
 فى مبدأ الامر أنكرت تلك التنظيمات انكارا كليا حتى ظهر فى بعض
 جهات المملكة مبادئ الاضطراب وسبب ذلك ان عمال تلك الجهات
 وغيرهم ممن له فائدة فى التصرف بلا قيد ولا احتساب لما يتقنوا ان اجراء
 الادارة والاحكام على مقتضى التنظيمات مما يحل بفوائدهم الشخصية
 دسوا للعامة من قول الزور والغش ما ينفرهم منها مثل قولهم هذا شرع
 جديد مخالف لشرعية الاسلام واعانهم على ذلك من كان له من الدول
 الاورباوية فائدة فى عدم نجاح سعى الدولة فى تحسين احوال مساكنها
 فالدولة العلية عوض ان تغتنم تلك الفرصة وترجع الى استبدادها كما
 وقع فى بعض الممالك كذبت تلك الظنون الفاسدة بارسال نفر علماء
 ذلك العصر وأنقاها عن شيخ الاسلام المقدس عارفا بك الى جهات
 الاضطراب لوعظ الناس وامرهم بالطاعة والامثال فخطب بذلك على
 المنابر وبين للناس ان تلك التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعى
 وماهى الاضبط للسياسات الشرعية التى كانت اهملت وان الداعى اليها
 ليس الاتحسين ادارة المملكة وحفظ حقوق الامة فى النفس والعرض
 والمال وكف الايدى المجاورة من الولاة وضو ذلك من المصالح فانقادت
 الرعية عند ذلك وسكنت واستمر العمل بالتنظيمات فى سائر الجهات بقدر
 الامكان وأنت خير بأن مثل هذا الخبر الذى سارت به سائر الركان
 وشهد له بالعلم والعمل جهابذة ارباب العرفان خصوصا نفاظر القطر
 الافريقى ونفرا الرشاد المحقق من بلغ صوت صيته مسامع سائر النواحي
 الاستاذ العلامة سيدى ابراهيم الرياحى لولم ير مساعا لهذه التنظيمات

ماخطب

ما خطب به على المنابر ولا كان على قعر برها الحرم مثابر ومن تأملها بعين
 الانصاف لم يجد في حسنها ولياقتها ثمارا بخلاف بل جزم بأنها اقوام الاستقامة
 والوسيلة التي يستعاض بها ما كان للدولة من العز والفخامة وهذا الصنع
 الجليل الذي صدر من هؤلاء السلاطين العظام مع ما حصل به من تحسين
 حال الدولة والرعايا بما لا يسع المتصف انكاره بالنسبة لما كان قبل
 لم يقع حربا من المسلمين مع الرعايا من غيرهم بل لم يزالوا يطلبون من الدولة
 اطلاق الحرية بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب
 من أعضاء منتخبهم الا هالي وفي هذه المدة الاخيرة اشتد المحاحهم في طلب
 ذلك حسب ما تضمنته صحف الاخبار ونحن وان لم نطلع على احوال ادارة
 المملكة العثمانية في الحال لاسيما في كيفية اجراء تلك التنظيمات
 اطلعا على كنهها مع معرفة مصحة الاسباب التي تنظم منها الفريق المذكور
 أو عدم صحتها فاننا لم ان هذا المطلب الذي طالبه هو من اعظم الوسائل
 في حفظ نظام الدولة وقوة شوكتها ونمو عمران ممالكها ورفاهية
 رعاياها خصوصا في هذه الازمان كما نسلم ايضا ان مقصد المسلمين من اهل
 الحزب المذكور بطالهم لما ذكر انما هو اصلاح حال الدولة والرفعة
 لكن لنا ان نسالهم هل ثبت عندهم ان مقصد غيرهم من معهم موافق
 لمقصدهم حتى تحصل لهم الثقة بهم ويصدر منهم ما ذكرنا نرى خلاف ذلك
 منهم عادت عليه الفرق من ان مراد أكثرهم انما هو التخصي عن سلطة
 الدولة العثمانية حيث لم يظهر منهم بعد نيل الحرية الموجودة الا ان
 شئ من امارات النهج للدولة بل ربما اظهروا حسب التزوع الحزبي
 جانبهم بالتظلم من تصرفاتها واستنارة عبادي الحيرة معها وذلك لاستمرار
 افساد الاجنبي اهلهم وزرعهم بذرا الحية في صدورهم لا غرض له لا تخفي

فربما كان تأسيس الحرية على الوجه المطلوب آتيا قبل التبصر في العواقب مما يسهل غرضهم المذكور اذ من لوازم هذه الحرية تساوي الرعايا في سائر الحقوق السياسية التي منها الخطط المالية مع ان من الشروط المعتمدة في اعطائها تلك الحرية نواطو جميع الرعايا على مصلحة المملكة وتقوية شوكة دولتها ولاقل من هذا السبب امتنع بعض الدول الاورباوية من اطلاق الحرية المشار اليها تحاشيا من تحزب بعض الرعايا على تبديل العائلة الملكية كما سيأتي بيانه عند الكلام على حرية اوربا فاذا ساغ الامتناع مع كون البديل المتوقع من جنس البديل منه فلا ينبغي منع من غير الجنس سوى وأولى وأيضا من رعايا الدولة ينقسمون الى هذه اجناس مختلفة الاديان واللغات والمعادن وغايبهم يجهل اللغة التركية التي هي لغة الدولة بل يجهلون لغة بعضهم بحيث تعسر التفاوض بينهم ولو ركب مجلس من جميع طوائفهم ولا يتيسر اعطاء الحرية لبعض دون البعض لما نشأ عن ذلك من الوجد فيجب أن نعتبر حالة هؤلاء الرعايا من اعظم العوائق عن تأسيس الحرية على الوجه المطلوب بالدولة العثمانية فنعتبر ما أمرنا اليه لا يسوغ له ان يوجه اللوم على الدولة في توقفها الى الآن عن اعطاء الحرية المطلقة وتأسيس المجلس المذكور وان كان ما ذكرناه لا يرفع عنها وجوب الاجتهاد في قطع تلك العوائق التي يكون حسمها بعون الله تعالى من ما نرى في هذه الامم الذي رفع من اعلام العدل ما تنكس واحيا من رسوم الاستقامة ما ندرس فانا بمتقضي ما حوله الله من الحزم الناجح والراي الراجح نقول أن نرى منه لا سيما بعد اطلاعه على احوال اوربا اعيان وتطبيقها على ما كان معلوما لديه بالبيان مزيد العناية بكل ما يتيسر به اطلاق الحرية على الوجه

الاكمل باعانة رجال دولته وعلماؤها المتعاضدين على انجاح مصالح الدين والوطن والعارفين بأسباب التقدم مآظهم منها وما يابطن

ثم ان من عوائق نجاح التنظيمات في سائر الممالك الاسلامية تقاعس الدول الاورباوية عن ادخال رعاياهم المستوطنين بها تحت احكامها استنادا للشروط القديمة التي لا تليق بهذا الوقت بل لا ينبغي أن تسعى شروط الانبثاق على ما يفضل بالشروط وعلى فرض تسليم بعض الشروط وتسليم ما يوجب دوامها فانهم لا يقفون عند نصها بل يستخرجون منها ما ليس فيها مما هو مناف لمقوق المساواة بين الامم وللمقوق سلطنة الارض على كل وارد لها بمعنى ان من دخل مملكة من الممالك فلا بد أن يخبرى عليه احكامها وادعاء بأن معارف حكام الاسلام خير كافيصة لمفظ حقوق رعاياهم وان كراهيتهم للنصارى فعملهم على الخيف عليهم والمجواب عن الدعوى الاولى ان مدعيها لا يمكن أن يظن به تعميمها في حكام المسلمين مطلقا أعنى سواء كانوا احكام شريعة أو سياسة لسا هو معلوم عند كل قائل خصوصا من هو منصف ان علماء شريعة الاسلام في غاية المعرفة بأحكامها أصولا وفروعا فلم يبق الا أن يريد هذا المدعى حكام السياسة منهم وهذا غير مسلم لسا هو ظاهر من بطلان دعوى من يدعى جهل جميع أهل مملكة من الممالك بحيث لا يوجد بهام من يقوم باعباء احكام تنظيماتها نعم هناك شيء واحد وهو ان جميع الامور في ابتدائها قبل التمرن عليها والاعتياذ بها يقع فيها نوع اضطراب وارتباك حتى يحصل الاستئناس بها وتأخذ مأخذها وهذا امر طبيعى لا يقدح به في التنظيمات فان ترى دول أوربا لم تكن من أول الامر حاصلة

إلى هذا النجاح في تنظيماتها المشاهدة لها اليوم وإنما حصلت على ذلك
 بواسطة عانة السكان لها على أجزائها بعدم الخالفة والشقاق إذ يدون
 ذلك لا يطمع في الحصول على شيء من نتائجها بل لم نزل نرى إلى الآن
 نفاوئ الدول المذكورة في تهذيب تنظيماتها ومعارف حكمائها وعقبتهم
 ولم يمنع هذا التفاوت دخول المتقدم منهم فيما تحت أحكام المنة آخر فلم يبق
 حينئذ إلا أن نقول إن هذه الدعوى مجرد توهم وليست مستندة إلى
 شيء من الأدلة والتجارب لأنه لم يدخل أحد من دعاياهم تحت أحكام
 تنظيماتنا حتى يلحقه الضرر منها بل لنا أن نقول أنها مجرد مكابرة
 وأما دعوى الكراهية فلا يخفى أنها بعد تسليمها مشتركة الإلزام إذ
 للمسلمين أن يظنوا أن النصارى أيضاً تحملهم العداوة على الخيف
 عليهم وقت حلولهم ببلدانهم لكن الحق أن العداوة الدينية لا تستميل
 المحاكم عن الانصاف المؤسسة عليه الشريعة وعن الوقوف مع الحق
 حيث يجب حتى لو وجب على المحاكم نفسه لا نصف طالبه منه كأننا من
 كان عملاً بما هو من قواعد الدين الذي هو أعظم وأزاع حتى لم يبق معه
 لا ينار النفس أثر فقد ورد أن زبد بن سعدة جاء قبيل إسلامه يتقاضى من
 النبي صلى الله عليه وسلم ديناله فجذبه من رداءه حتى أثر في طائفة الشريف
 ثم قال إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل فانتهروا عمر وشدد عليه في القول
 حيث لم يتوخ الرفق في الطلب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أنا وهو كذا أحوج إلى غير هذا إنك يا عمر تأمرني بحسن القضاء وتأمره
 بحسن التقاضى ثم قال لقد بقي من أجله ثلاث وأمر عمر أن يقضيه مائة
 ويزيده عشرين صاعاً لما رآه فكان سبب إسلامه رضى الله عنه
 وورد أيضاً أن يهودياً أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطالب علياً

(١٤)

كرم الله وجهه في حق وكان على عنده فقال له عمر قم يا أبا الحسن واجلس
مع خدمك فري في وجهه على الغضب فلما انفصلت النازلة قال له عمر
مامعناه تغضب لطلب ان تساوى خصمك فقال له على ما غضبت لذلك
وانما كرهت تسكينك لي بمحض خطي فالحاكم اذا كانت ديارته
تلقوه الاتباع للريعة بقتة غي الوازع الديني والافتداه بمسلف من
الخلفاء الراشدين الذين هم نجوم الامة كيم يتوهم منه ترجيح جانب
المسلم على غيره وبعده هذا المبيت لمن له انصاف من الورد او بين اربا يرى
فيما كرهنا ضمانه كافية لمعظ الحقوق كما انه لا يتأتى له أن يرى
امكان ابراء الفوائد على وجه يقر التبع المفسودة منها مع امتناع بعض
الامكان المداوة فيها لاسيما بالامتنع يده غالب الصناعات والمتاجر
يتم انهم ليكنوا في التعطيل بذلك الامتناع حتى صار بعضهم يفرطوا
بعض الممالك الاسلامية من قبول التنظيمات التي رافقها تأسيسها
بأرياقرا لهم اربعة التنظيمات لا تاتي بحالهم فوجوهكم الى
ما كنتم عليه اولي بكم مع ان ذلك يخالف لقواعد سياسة بلادهم وبعضهم
يقول لهم ان الحرية التي منحتهموها من دولتكم لا تفي بحفظ حقوقكم
مع انها في الواقع اكثر مما منحتهم اربا بلادهم فلذلك مضطر ان تعتقد
ان لا داعي لذلك ا قصد دوام التحير في الممالك الاسلامية لتعطيل
بجاهار بالجملة في سياسة الدول اورد في سنة الحسنة متناقضة
انهم من يذهب بعض الممالك بالاطاعة على الترتيب المناسبة ومنهم من
مطل ذلك بتلك الممالك ويبدل النصيحة المذكورة لغيرها على حسب
اختلاف اغراضهم

هذا وان سياسة غالب الدول الاوربا ويدلوا كانت كما ذكرنا لكن من الحق أن نقول في خصوص مبحث الشروط اننا رأينا عند الهادئة مع رجال بعض الدول الغربية منها أنهم يسلمون عدم لياقة تلك الشروط به هذا الوقت ولا يمتنعون من تبديلهما بما يناسب لكنهم يطالبون منا قبل ذلك اعطاء الضمانة الكافية في حفظ حقوق رعاياهم بترتيب مجالس الحكم وتمثيلها مدة من الزمان حتى يثبت عندهم بالتجارب حسن اجراء الاحكام بحيث يتيسر لهم تسليم رعاياهم على التدريج بحسب ما يروونه من فساد الترابيب حتى يتم دخولهم تحت احكامنا ونحن نقول لما كان بناء حال الاجانب على ما هو مشاهد اليوم مضرا بالممالك الاسلامية والدول الاورباوية لا تساعف على تبديل الشروط الابداء ذكرنا وجب على الدول الاسلامية السعي في ازالة هذا الضرر باعطاء تلك الضمانة وابرازها للخارج ومن العوائق للتنظيمات وهو انظمة تعرض بعض المتوظفين في تأسيسها واجرائها المبالغ في تعطيها من المصالح الخصوصية التي منها دوام تصرفاتهم في الخطط بلا قيد ولا احتساب هذا وان الامة الاسلامية لما كانت مقيدة في افعالها الدينية والدنيوية بالشرع السماوي والحدود الالهية الواردة على الميزان الاعدل المتسكفة بمصالح الدارين وكانت ثمة مصالح تهم الحاجه اليها بل تنزل منزلة الضرورة يحصل بها استقامة امورهم وانتظام شؤونهم ايتنا لها من الشرع اصل خاص كما لا يشهد بدورها بل اصول الشرع تقتضيها اجالا وتلاحقها بعين الاعتبار فالجري على مقتضيات مصالح الالة والعمل بها حتى تحسن احوالهم ويحجزون قصب السبق في مضمار التقدم متوقف على الاجتماع وانتظام طائفة من الالة ملتزمة من جملة الشريعة ورجال

(٤٣)

ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمة متبصرين في الاحوال الداخلية
والخارجية ومنائشي الضرر والنفع يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الأمة
بحسب مصالحها ودرهم فاسدها بحيث يكون الجميع كالشخص الواحد
كما قال عليه الصلاة والسلام المؤمن للأئمة كالقيدان المارصوص يشد بعضه
بعضاً وكما قال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى
منه عضو تداعى له سائر الجسد فرجال السياسة يدركون المصالح
ومنائشي الضرر والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على اصول الشريعة
وانت اذا احطت خبراً بما قرأه عات ان مخالطة العلماء لرجال السياسة
يقصد التعاضد على المصلحة المذكورة من أهم الواجبات شرعاً للعموم
المصلحة وشدة دخلية الخطة المذكورة في اطلاع العلماء على المحوادث
التي تتوقف ادارة الشرع على معرفتها ومعلوم ان ما لا يتم الواجب
الالهي فهو واجب ويبين ذلك ان ادارة احكام الشرع كما تتوقف
على العلم بالنصوص تتوقف على معرفة الاحوال التي تفسر في تنزيل تلك
النصوص فالعالم اذا اختار العزلة والبعد عن ارباب السجاسة فقلسد
عن نفسه ابواب معرفة الاحوال ائشار اليها وفتح ابواب المحور والولة لانهم
اذا استعانوا به فامتنع صاروا ينصرفون بلا قيد نعم يعاب على العلم شرعاً
وقهلا التمسك في الدين والتحمل في النصوص الظاهرة في خلاف
ما اراد منها وارث كتاب الله قول الضعيفة ليوافق الاهوية والاغراض
لا لاجل الله الخ تنزل منزلة الحاجة والضرورة حتى يتقلب ذلك الضعيف
نوباو حيث كانت ادارة المصالح السياسية مما لا يتيسر لغالب الولة
برؤسها على الاصول الشرعية لاسباب شتى يطول شرحها وتقدمت الادلة
لي ما يترتب على ابقاء نصير فانهم بلا قيد من المضار الفادحة رأينا ان

العلماء الهداة جديرون بالتبصر في سياسة أوطانهم واعتبار الخال الواقع في أحوالها الداخلية والخارجية وأمانة أرباب السياسة بترتيب تدبیرات منسوجة على منوال الشريعة معتبرين فيما فيها من المصالح الحفها ومن المضار اللازمة أخفها ملائمين فيما يذنبونه على الأصول الشرعية أو يلحقونه بفروعها الأربعة ذلك المقال الوجيز المنسوب لعمر بن عبد العزيز بن محمد بن الحسن القاضي بحسب ما أحسنه من العجور وما في معناه من أدلة أن الشريعة لا تتغيرها تقلبات الدهور ومن تصفح رسالة استاذ المشايخ الحنفية ومخطط وحال الاستفتاء بالديار التونسية من لم يزل على نقوله واقفه اسم العول الشيخ سيدي محمد يبرم أقول وجدتها من الأدلة ما يشهد لما ذكرناه فانه عرف السياسة الشرعية بأنها ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وان لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي ثم أشار إلى ذم ما كان من التصرفات السياسية في استسوط في التعريض وأفرط بقوله ان من وضع النظر عنها لا فيما قل فقد ضيع الحقوق وعطل الحدود وأعان أهل الفساد ومن توسع فيها فقد خرج عن قانون الشرع إلى أنواع من الظلم ثم قال وثقل ابن قيس الجوزية عن ابن عقيل مخاطباً لما قال لسياسة إلا ما وافق الشرع إن أردت بقوله لا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصح وان أردت لسياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط وتغايير للعقوبة رضي الله عنهم وسر أمثلة من سياساتهم ولا ينفي الجوزية هنا كلام حادله ان أمارات العدل اذا ظهرت بأدبار بني كان فهناك شرع الله ودينه والله تعالى أحكمهم من أن يخص طريق العدل بشئ ثم يفتي ما هو ظاهر منه وأببر وسائل القرافي عن الأحكام المرتبة على العوائد اذا تغيرت تلك العوائد هل تنفع الأحكام

الاحكام لتغيرها أو يقال نحن مقلدون وليس لنا احداث شرع جديد
لعدم أدلةنا للاجتهاد فأجاب بأن ابراء الاحكام التي مدر كها العوائد
مع تغير تلك العوائد بخلاف الاجماع وجهالة في الدين بل الحكم التابع
للعادة يتغير بتغيرها وليس هذا بتجديد اجتهاد عن المقلدين بل هي قاعدة
اجتهاد فيها العلماء واجمعوا عليها انتهى وعذا من القيم من الجهل والغلط
القاحش توهم ان الشريعة المطهرة قاصرة عن سياسة الامة ومصلحتها
قال ولاجل هذا الغلط تجرأ الولاة على مخالفة الشرع فخرجوا عن
حدود الله الى أنواع من العلم والبدع في السياسة يعني وسبب ذلك تسكهم
أو تمسك العلماء الذين يفتونهم بظواهر النصوص فيضيعون ما وسعه
الله عليهم فيضطرون الى خلخاع القيود وهتك المحرمات والحدود وبشاء
على ما تقرير يظهر أن اللائق بأولئك الهداة ان يتوسطوا بين التفریط
والافراط بحيث لا يبعدون من رجال السياسة بعدا يتسبب عنه تبعيد
تصرف الولاة عن الشريعة وما لا يدرك كله لا يترك كله ولا يقرنونهم
قربا يشأ عنه تقرير يشهوانهم بتسهيل طرقها لهم

وحيث تقدم به ان الأدلة الكافية لوجوب التنظيمات السياسية التي
لولا يمكن ان تنفي الاجنبى والمتوطنين منها لكان كافيا في الدلالة على
حسنه اولد اقربا بمصالح المملكة كان من أهم الواجبات على أمراء الاسلام
وزررائهم وعلماء الشريعة الاتحاد في ترتيب تنظيمات مؤسسة على
دعائم العدل والمنورة كافلة بتهديب الرعايا وتحسين أحوالهم على وجه
يزرع حب الوطن في صدورهم ويعرفهم مقدار المصالح العائدة على
مقدورهم وجهودهم غير معتبرين بمقال بعض الجسافين ان تلك

التنظيمات لاتناسب حال الامة الاسلامية مستند في ذلك الى اربع شبه
الاولى ان الشريعة منافية لها الثانية انها من وضع النبي في غير محله
لعدم قابلية الامة للتمدناتها الثالثة انها تعضى غالباً الى اضاعة الحق في سائر المخطوط
القانونية الرابعة انها تستدعي مزيداً من الضرائب على المعاملة بما تستلزمه
من كثرة الوظائف لادارتها المتنوعة

ولا يخفى على المتبصر ان جميع ما استند اليه مردود اما الشبهة الاولى
فيكفي في ردّها ما اسلفناه مما يدل على ان الشريعة تقتضي التنظيمات
لا سيما بعد اعتبار احوال ولاة الوقت وعلى فرض ان يورد في التنظيمات
بعد تأسيسها وتهدئتها من رجال العلم والسياسة شيء لا مسوغ له فلا مانع
من تبديله ولا يكون توقعه سبباً في ترك تأسيس التنظيمات من اصله
واما بقية الشبه فلو اردنا الاكتفاء في ردّها بما تقدم لسكنى ايضاً الممكن
رأياً ان نزيده ايضاً وبياناً فنقول اما الشبهة الثانية فخواصها ان عامة
غيرنا الذين بلغوا بالتنظيمات غاية التمدن كانوا في مبدأ الامر اسوأ حالا
من عامتنا وان كنا نعلم ان معارفنا الدنيوية الآن اقل مما انتفعنا به
التنظيمات لبعض الامم الاورباوية لكن عند التأمل يثبت عندنا ان
الامة الاسلامية بمقتضى ما شهد به المنصفون من رجحان عقول اوسط
طامها على عقول غيرها من الامم تتمردان تكتسب بمابقي لها من تمدنها
الاصلي وبعادتها التي لم تنزل مأثورة لها عن اسلافها ما يستقيم به حالها
ويتسع به في التمدن مجالها ويكون سيرها في ذلك المجال اسرع من غيرها
كما اننا كان اذا اذ كبت حريتها الكفامة بتنظيمات مضبوطة
تسهل لها التدخل في امور السياسة وذلك ان الحرية والهمة الانسانية

الذين هم امننا كل صنع غريب غريزان في أهل الاسلام مستندان
 مما تسكبهم شربهم من فزون التهذيب بخلاف غيرهم عن لم تحصل
 لهم الغريزان المذكوران الاجراء التنظيمات في بلادهم نعم من
 الواجب على مؤسس اصول الحرية السياسية اعتبار حال السكان ومقدار
 تقدمهم في المعارف اعلم بذلك متى يسوغ اعطاء الحرية التامة ومتى لا يسوغ
 ومتى يعهم المقدم اذا المعطى في سائر السكان ومتى يخص بمقامته شروط
 معتبرة ثم توسيع دائرتها بحسب نمو اسباب العمدن شيئا فشيئا ثم لوسلم
 هذه الغايلية للتنظيمات وان الامة كما برعها اولئك القادحون
 بنبابة الصبي غير الرشيد الذي يلزم التقديم عليه فهل ينقض اهم دائل
 على جواز ان تكون تصرفات المقدم خالية عن مراعاة مصلحة المقدم
 عليه وهل تيسر تلك المراعاة بدون توقع احتساب مؤسس على
 الشرع واما الشبهة الثالثة في جوابها ان التطويل الذي يمكن من وضعه
 في فصل النوازل يرجع الى قسمين لانه اما ان يكون ناشئا عن صعوبة
 تصور النازلة وتعيين ما ينطبق عليها من النصوص المتجاذبة لها
 او يكون ناشئا عن قصور المتوافقين او تنصيرهم اما القسم الاول فلا
 يتشكى منه الا الجاهل او المتجاهل وذلك ان اعطاء النوازل حقها من
 التأمل حتى ينصح عند المحاكم وجه الحكم يستدعي فسحة ضرورية
 لفهمه اعلى الوجه المطلوب وتلك الفسحة لا تتفاوت بمفاوت النوازل
 في التثعب من لوازم البشرية في حق كل من الحاكم والمحكوم عليه
 اذ الحكم سواء كان مبنيا على القواعد الشرعية او القوانين العقلية
 لا يكثر حكمه متناه الا اذا كان مسبوقا بأخذ المحكوم عليه مهلة لتحرير
 جميعه التي يدافع بها عن نفسه وأخذ المحاكم مثلها لامن النظر فيها

ونعين ما ينطبق من الاصول عليها فالحاكم اذا قص من احدى الماهيتين
 شيئا قد ظلم المحكوم عليه ونفسه وحيث كان التطويل المشار اليه طبيعيا
 للنوازل ومما قاضد على لزومه الشرع والفعل يسوغ لنا أن نقول
 انه لا مندأ للفسح به في التظيمات الارادة تنفير الاهالي منها بتحسين
 ما تعودوه من حكامهم السياسية الذين كثيرا ما ينشر لديهم من الزنازل
 ما لو نشر لدى احدق القضاة لاحتاج في تصوره الى عدة ايام في ادر ون
 الى فصلاها في عدة دقائق بحكم لا يتعقب بل لو فرض اترخيص منهم
 في تعقبه لما أمكن ذلك حيث لم يكن الحكم مسجلا بظهير لان التعقب
 يستدعي استناد الحكم المتعقب الى شيء من الادلة يمكن اطلاق المتعقب
 عليه بحيث يجد محلا للخطئة في تنزيل الحكم أو فخر ذلك اذا كان الحكم
 مسجلا وما يصدر من هؤلاء حكم شفاهي غير مهمل باسناداده الى شيء
 في الخارج فبول لا يخلو اما أن يكون أمرا انه فيما يجب ما يستعمل لاحدهم
 في ذلك الوقت ولذلك ترى كثيرا من النوازل متفقة في المنى واحكامها
 مختلفة أو متنادا الى دليل لا يتجاوز صدر ذلك الحاكم ولا يمكن الاطلاع
 عليه وفي الحالات لا يمكن التعقب ثم الانسكرك أن يقع في ابتداء لعمل
 بالتظيمات شيء من التطويل فائد على المقدار الطبيعي ناشئ عن عدم
 التهودها والتترن عليها لكن نرى الخطب في ذلك سهلا انه مما يزول
 ما عانة الله في أقرب وقت عند حصول ملكة التعريب وتحفيف الأعمال
 المحكام في الاحكام الخفيفة ارتكبا لانخفاض الضرب وتحرير الض الدولة
 مسانومة وظفي السياسة على المبادرة باتمام ما مورتهم بلب المدعى عليه
 ونحو ذلك مما تموقف عليه الاحكام حتى لا يبقى من اسباب التطويل
 الا ما يستدعيه حال النازلة على اننا نقول تناسل ما مع هؤلاء المفسرين

ان الغرض من التنظيمات ليس محصورا في فصل النوازل الشخصية على وجه الانصاف، انما مول منها بل هدف لك مصانع اخرى من اهمها ضبط كليات السياسة القابض لايدى الولاة عن الجور فابن مضمرة التطويل في النوازل الجزئية من مضمرة اطلاق ايدي اولئك الولاة في التصرف في الابدان والاعراض والاموال فهذه الشبهة على فرض نهوضها لا تنتج الا تعطيل بمجالس النوازل الشخصية اما ضبط اصول السياسة الذي هو اساس غير المصلحة فلا تظن دليلا ينهض على تعطيله بوجه من الوجوه واما القسم الثاني فظاهر انه لا يقدح به في حسن التنظيمات في نفسها وانما يتوجه التشكي من مضمرة على الدول حيث لم تمنع النظر في احوال المتوطنين وتمتعهم، نزيد المراقبة والتجربة

وبيان ذلك ان ترى المتوطنين في الامم الاسلاميه على ثلاث فرق الفرقه الاولى يستحسنون ترتيب التنظيمات استحسانا صادقا ويؤثرون ما تنتج من الهمة والحريه وتوفير مصالح الرعية على ما عسى أن يكتسبه بالاستعداد من المنح الخصوصية الفرقه الثانيه يحجبون مصالح التنظيمات بحيث لا يرون كبير فرق بينها وبين السيرة الاستبدادية بل يمسدونها من بدع آخر الزمان ويؤثرون عليها البقاء على ما كان ولا منشأ لذلك الا القصور وعدم الاطلاع على نتائج التنظيمات في غالب المعمور الفرقه الثالثه لا يحجبون مصالح التنظيمات وتوفيرها لمحسيري البلاد والدولة ولا يحجبون على ذلك فوائدهم الشخصية التي تتوفر لهم بالاستعداد ولا منشأ لذلك الانقاص الديانة والهمة لانسانية وعدم ملائمة العواقب الدنيوية والاخرى اذ تعهد هذا فنقول ان التنظيمات وان بلغت بحسن الترتيب والتهديب غاية المطابقة لمقتضى

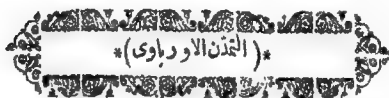
الحمال لا تظهر فادرتها المقصودة من تأسيسها الا اذا كان المكلفون
 باجرائها من الفرقة الاولى فهم الذين توكل صالح العباد الى امانتهم وبه يقد
 في تأسيسها وتمشيها على اعانتهم وأما الفرقة الثانية فليحصل من
 تكليفهم الا بخلاف المقصود لاسيما لفردية الثالثة لمزيد انبعاش
 همها الى تعطيل التنظيمات فعلى الدولة التي عزمت على تأسيسها اذا
 هلت ما ذكر من احوال الفرقين المذكورين أن تزيح بأمانتها عما
 سفلها ولا ادارتها حتى يثبت عندها بالقبض بصدق رجوع الاولى الى
 استقامتها بالقلب والقالب وايش والاخيرة المصالح العمومية الى الخطوط
 الشخصية واكتساب المروءة الانسانية المساعدة من قبول الانسان
 عطفه لا يباشرها به، قديمو بالحكمة فاسد ان النسي الى عهد ممتنى زواله
 من اقوى موجبات اختلاله وضعف لاه وأما الشبهة الرابعة وهي
 اقتضاء التنظيمات لزبد الضرائب على الملكية فخرابها ان هذا القائل
 المكبر لو علم ما ينشأ عن حالة الاستبداد وحالة التقيد بالتنظيمات لما
 صدرت منه هذا القول الوهمي المانية على عكس القضية فان حالة
 الاستبداد هي التي تقضي كثرة الضرائب اذ يؤخذ فيها اللازم وغير
 اللازم ليصرف فيه ما هو في الغالب غير لازم بخلاف حالة التبعيد فانما يضبط
 الدخل ومصره في خصوص الامور اللازمة لا تكلف فيها اهل الملكية
 الا بضرائب تسعهم انفسهم حيث يرون لزومها ومصره ما في مصالح وطنهم
 فاذا قام لنا ما يلزم صرفه على اجراء التنظيمات بما يقص بها من المصاريف
 والمخلف غير اللازم التي لم تكن محروقة قبل التنظيمات بعدد ولا مبالغ
 عمارت تقع بها من المظالم التي لا تقبل بدونها انفسهم لم يبق للمصرف شك
 في أن التنظيمات على غير من كثرة خطتها من ادوى اسباب الاقتصاد
 والتوفير

والتوفير لاسيما والمساكن ون الاستقلال المجاني من قسودون بالقوانين
 أيضا فثمان بين حالة المستبد الذي يأخذ ويعطي بمقتضى الشهوة
 والاختيار وحالة المبد القوان الذي يفعل ماذكر بمقتضاها متوقفا
 تعقب آراء كثيرة ينجح من نيز يلها اياه نزلة العاصر في تصرفه فضلا
 عن الخشاق فيه فبان بهذا ان المصاريف البله التي تكلف المملكة
 مالا طاعة لها به انما تكون حالة الاستبداد وان الاقتصاد الذي هو نسا
 غيرها انما يحصل بضبط سائر انصراطات بقود التنظيمات وفي هذا
 المقدر كفاية لمن تبصر الفرق بين الحالتين ولواطلاعنا عن ان القسم
 في بيان حال بعض الدول في مصاريفها وفي سيرة المبشرين بها قبل
 تأسيس التنظيمات وبعدها حين تسير تعطيها لاهل الاعراض
 والشهوات من ارباب المخطط ورجعوا للتعرف بلا قيد ولا احتساب
 باعانة امثال هذا القادح لتبصر له ان قلة معرفته بتنازع التنظيم حالت هي
 التي غرته واغرته على المدح فيها بمثل ما املفنا وعمل اعانة الساعين
 في تعطيل لغرائدهم الخصوصية المضرة بالدولة والمملكة لكن سعة
 مجال الكلام في ذلك يخرجنا عن المقصود * هذا واذ كانت الدولة
 العثمانية التي هي مركز الخلاف الامامية مع اشرفنا اليه سابقا من
 العوائق الخاصة بها لم تزد مجتهد في رفع تلك العوائق اجتهاد يرجي منه
 تمام نجاحها بتأسيس ما يتم به خير عملكها وحفظ حقوق رعاياها
 فغيرها اخرى وأولى لا تتفاء تلك العوائق عنها فلا يظلموا كها سب قوى
 في الامتناع الاحب الاستبداد الموصل للشهوات ثم نقول كما كان ترتيب
 التنظيمات واجبا على من تقدم بعراة حال الوقت فن اللائق أيضا
 ان يدهى من الدول الاورباوية المتمثلة بحب التحجير للنوع الانساني

ان يعينوا في هذا الشأن ولو بالكشف عن التعطيل خصوصاً من جهة
 فائدة في دوام اسياسة لالامة الاسلامية هذا ما دعت الحاجة الى تحريره من
 اسباب التقدم وانا نأمل لامة الاسلاميه ملخصاً لجه من الكتب الاسلاميه
 والاfrنجيه و به يعلم من لاجبرته بأحوال الاسلام من الاورباويين
 وغيرهم ما كان للامة من التقدم في المعرفه وغيرها وبت نفوذ الشريعة
 في احوالها ودخول الولاة تحت قيودها وان الشريعة لانا في تأسيس
 التنظيمات السياسية المقوية لاسباب التقدم ونحو العمران كما يقتضيه
 الكثير من ذكرنا حتى صاروا يدرجون ذلك في صحف أخبارهم
 ومصنفات تاليفهم ولا سبب لذلك يمكن اعتذارهم به عن سريان ذلك
 لاقتناعهم الاما ياهدونه في ممالك الاسلام من امتثال انهم عرفات
 والاحكام وما نأمنه من سوء حال الرعايا وهذا ونحوه من ضرر نقصير
 الامراء في حماية الشريعة واسبقادهم بالتصرف بمقتضى شهواتهم مع
 اغفال العلماء القيام بما أهلهم الله به وعراضهم عن مقتضيات احوال
 الوقت كما أشير اليه سابقاً ولا يخفى ان البقاء على هذه الحالة مما يعظم
 خطره وتخشى عواقبه سمعت من بعض اعيان اوربا ما دعاه ان التقدم
 الاورباوي تدفق سيله في الارض فلا يعارضه شيء لا استهائه قوة تياره
 المتسارع فيخني على الممالك المجاورة لاوربا من ذبائمه ارا اذا حذوه
 وجرأ مجراه في التنظيمات الدينيوية فيمكن نجاتهم من الفرق وهذا
 التمثيل المخزن لمال الوطن مما يصدقه البيان والتجربة فالجهاورة
 لها من التأثير بالطبع ما يستدركه الخلق المشاهدة عن كثرة نتائج
 الصناعات بحيث تجب لاجراجه والارتفاع بأتمها وهو سبب ثروتهم
 كما تقدم ولنقتصر على هذا المقدار من الاشارة الى اسباب التقدم

(٥٢).

والتأخر في الأئمة الإسلامية ورجع إلى ذكر أطوار التمدن الاورباوى من أيام الامبراطور شارلمان الى هذا التاريخ على وجه اجمالى يقتدر به على الاطاحة بأنواع التمدن المكتسب بالمعارف ويستفيد منه من يريده رقة الانحفاص الذين اشتهروا بكشف كنوز الطبيعة وأسرار التهذيب ورسوم معالم السياسة



اعلم ان الامبراطور شارلمان الذى أسس دعائم المباشرة والاحكام كان أشهر ملك ظهر بأوربا ومن وقت سقوط الدولة الرومانية الى سقوط دولته الا فريق التى كان تحت مملكتهما القبطانية العظمى وهو الذى أدخل العلوم والاعمال لما مكة وكان يفتى غالب أوقاته في قراءة العلوم وكان مجلسه محفوظا بالعلم وأسس بياريس مدرسة جامعة لساثر المعارف وبمثل هذه المآثر حصل له من السمعة في أقطار الارض ما اسفhal المخلفة شارون الرشيد الى مصبه وهاداته بعنف منها منغالة لم تزل الى الآن في أسد قصور فرنسا ثم بعد وفاة الامبراطور المذكور وقتئذ ان تدبيره تعطلت تلك المصانع وتنازات أوربا وبقيت مغمورة في دجى الجهل مدة ستمائة سنة وفي هاته المدة كانت موطئا لقدام البربرية الذين كانت دولهم تتداول عليها ومع ذلك الفصل التام فان اهل الكنيسة منهم كانوا محافظين على كتب المعارف وعلى اللانين اللذين لولاهما انتفع بتلك الكتب وهما اليوناني واللاتيني فالناس ممنون لهم بذلك ثم في القرن الحما دى عشر الذى هو خامس قرون الهجرة النبوية ظهرت

مبادئ علوم وصناعات وهندسة في الابنية فانشئت بها مياكل
في الناحية الغربية من اوربا واخذ علم الفلسفة في التثوين محاورات
كلامية رمت زعات جدلية وظهر حزب الفرسان الذين اشتروا باسم
الكفاليير وهم جماعة من وجوه الناس فحالفوا على أن يجاربوا في الله
للدافعة عن حرية الذنوة والمستضعفين من سائر الامم الى وأن لا يلاحظوا
في أفعالهم لاسيما المحاربة لاعتصيات اشرف الانساني وعلو الهمة
ولومع أعدى الاعادي مثل البرحون من يسترحهم ولا يجهزون على جريحهم
ولا يتزور سلب قتلهم ومن أواخر هذا القرن الى أواسط القرن الثالث
عشر كانت حروب الصليبيين مع المسلمين لاقه كك بيت المقدس
وقطع استيلائهم على الامم في زعمهم وانما انبرأ له انه المحروبه واقربان
اميان مالها من الدخل في التمدن المورباوى فان ثروتهم يقولون ان
تلك المحروب وان هلكت فيها نفوس عديدة وأمران غيرة بدون
المحصل على المقصود بالذات فانما أعقبت نتائج نافعة لهم منها أنهم من
ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم لاهل المشرق
صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك وتخللوا باخلاق الحضرة وتعبدوا
بالاسفار لامتكتشاف أحوال الاقطار فاطاعوا على أعوان آسيا
المتوسطة وأحوال الصين كما ذلك مبين بتأليف ماركو بولو وبالجملة
فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاورباوين للامة فبالسلامة
المتدمة عليهم في التمدن والمضارة فكان ابتداء التمدن عدهم
لا سيما في القرن الثالث عشر ثم تذهب حتى وصل الى ما هو مشاهد اليوم
وانتهت اذ ذلك رئاسة العلوم والآداب والفلسفة الى صان برنار

بفرنسا وصان توماس باطاليا والبرت الكبير بالمانيا وريموند لولو
 باسبانيا وبن دونسكوت بانسكترة وظهرت الشعراء والمهندسون
 والكائنات الاصوائية والهيكل الفخيمة المذوبة لتقرون المتوسطة
 وفي القرن الرابع عشر نالت تلك الامور شرفها خصوصا في ايطاليا
 فان دانتى حرر اللسان اطلاقا في وقرة في شبه اراجيز يتخذ ذكرها
 وجيو تو وتشيا بوى احيا صناعة الدهن وبتراكا وبكاتشوسا سلكا
 طريقة دانتى في النظم والنثر ثم في اواسط القرن الخامس عشر
 وهو الوقت الذي لا ينسى اغرابه حرادته اخترع غمبرغ من اهل
 ميانس بالمانيا طبع الكتب الذي حصل به من تغبة مواد العلوم
 وسرعة انتشارها في اقطار الارض ما يغني فيه العيان عن البيان
 وأول ما طبع منها كتاب في اسماء الالة اللاتينية اتى عاد الى استعمالها
 اهل ايطاليا وتكاثر بها اشعارهم بعد ان تناسوها وهي وان لم
 تأخذ مأخذها في التوصل بها الى المعاني الدقيقة والطائف المبدعة
 فقد رجعت الى ما كانت عليه من الطلاوة وحسن السبك ثم أخذ القدن
 في الترقى بمدارج العلوم والاحمال وكانت المزية في ذلك جماعة
 الميديشي الذين كانوا رؤساء الدولة الجمهورية بفلورنسة ثم صاروا
 أمراءها فهم الذين مهروا سبلها للناس وسكان اشتهارهم بذلك
 في القرن السادس عشر المعبر عنه بالقرن الكبير الذي كانت
 ايامه تضاهى بأولئك الرؤساء أيام اغمطوس اول قياصرة الرومان
 في الاشمار وحسن هندسة البناء وبديع انشكاله اقتداء بالرومانين
 الذين اقتدوا في ذلك باليونان ومن حوادث القرن الخامس عشر

ان جماعة الميشتي المشار اليهم والبابا ليون العاشر الذي هو منهم
 بحثوا في الخزانة عن الكتب القديمة وابعوها لاستكثارت نسخها وجعلوا
 عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة وبذلك ارتفع عن محاسن
 الاقدمين القناع الذي تكثف بتطاول السنين وفي تلك المدة
 ظهر الشاعران أريوستو وتاسو اللذان أنهما اللسان العلاماني
 المستعمل الآن وحماني الطبقة الاولى من مشاهير تلك اللغة فأولهما
 علق ذكره باختراع معان لم يسبق اليها في اللغة مذهب مستعذبة والثاني
 نال شهرة أميرس الشاعر اليوناني وقرجيل الشاعر اللاتيني وبالمجلة
 فاللسان الطلياني أخذ في ذلك الوقت مأخذه من السلاسة وحسن
 السبك وألفت به تآليف عديدة في فنون شتى ومن مشاهير
 القرون المذكور كيا في الذي كان أول من بين القواعد السياسية
 يعد سقوط الدولة الرومانية وغو يتشرديني الذي باع بمجودة الفكر
 وحسن التعبير الى انغان التهذيب في التاريخ وفرا باولو الذي
 اشتهر بالدافعة عن حرية الوطن بقلم غير منصف في ضد سياسة
 البابوات الدائرة رحاها على ايشار الشهوات وفي ذلك الوقت
 ظهر بمملكة اسبانيا التي كانت اكتسبت من المسلمين أنواعا من
 الظرف كالغروسية واللاعب بالرمح وتعاطى المعاني الغربية من
 الاشعار الناظمين المجددان لوبس دفيغا وكالدرون اللذان اظهرا
 من التراكيب الشعرية ما حسن القارئ في المجامع المعدة لتهذيب
 الاخلاق المسماة عندهم بالتي اطرات كما ظهر في ذلك الوقت عند الانكليز
 الناظم الشهير شكسبير وهو وان لم يخل كلامه عن الهفوات فله

النفيس من جوهره ويتوصل بفصاحته الى الكشف عن كنهه
ما بر وم وصفه والاحاطة بكيفيته المحسوسة والمعنوية لاسيما في وصف
الحروب بحيث ان سماع كلامه يكون كالشاهد لما يصفه وأما
أهل شمال أو ربا فلم يشتهروا الى ذلك الوقت بشئ من اعمال الفكر
غير ان منهم من لا تذكر منته على العرفان مثل كبرنيك من اهل بولونيا
المولود سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وألف وهو الذي حر والقول بأن
الشمس في مركز العالم وان الارض والكواكب تدور حولها قيل
وليس هو أول قائل بذلك، وانما الاوّل فيلولاوس أحد تلامذة
فيثاغورس وذلك قبل وجود كبرنيك المذكور بألفي عام لكن وقع
الانفصال على أن كبرنيك هو الذي ينبغي أن ينسب اليه مزية الابتكار
لهذا القول وان انتفع في الاهتداء اليه بقول فيلولاوس المذكور
ومن حرر الدليل على تلك الدعوى بما يقرب من المشاهدة غيللاو
الطلياني وأعانته على ذلك ما اخترعه ميسوس من اهل هولاندا من آلة البلور
التي تكبر الاشياء فكانت مرآة تكبر الشئ مائة وستين مرة زيادة على
مقدار جرمه ثم تهذب تلك الآلة حتى صارت تكبره من ألفين الى ثلاثة
آلاف وأصغر ولم تزل تلك الدعوى تترجم عند اهل أوروبا الى أن
صارت معلومة لديهم وبواسطة تلك الآلة اطلع غيللاو المذكور على
كواكب لم تكن معروفة وهو وليستذه توريشلي أول من عرف
وزن الهواء وان طلوع الماء في الطنبسة مسبب عن ضغط الهواء
لسطح الماء وأن نهاية صعوده اثنان وثلاثون قدما حيث ان قوة صعود
الهواء النازل على سطح الماء لا تتجاوز المقدار المذكور فلا يجذب

بها الماء الى أكثر من ذلك والمحصل ان اهل ايطاليا اغتنموا
في ذلك الوقت شهرة بالآداب والصناعات المستطرفة الحماسة عندهم
بوزار وهي صناعة الدهن والنقش وهندسة البناء والموسيقى وحصلوا
على ما أمكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة وأما المانيا فقد اشتهر فيها
تيخوبراهي وكوبلر فالأول أفنى عمره وماله في طلب العلم واقتناص
شوارده حتى سعى بالحقن الى العلم والثاني صرف المهجة الى علم الفلك
حتى قيل له صاحب الاحكام وأما انكثارة فانهما صارت بقرب ذلك
العهد ذات يد في العلوم الرياضية والحكمة الكلامية وعن اشتهر فيها
فرنسيس باكن ذو الفكر الوفا والمجد والاجتهاد وقد صحت تسمية
تأليفه بحالة العلوم الجديدة واستند في دعاويه فيه الى التجارب المفرغة
في قباب الاسلوب الفلسفي حتى قيل ان فن الطبيعيات صار بقواعد
الكتاب المذكور كما ينبغي أن يكون وفي القرن السادس عشر امتاز
اهل فرنسا بعلم الاحكام الا في بيئانه واشتهر منهم بذلك عدد كثير مثل
كوجاودوملان وميشال دوليتال الذين عمروا مكاتب الاحكام
والماسر الفصيح فرنل المتسلطن في علم الطب وامبر وازبري أعرف
اهل وقته بأحوال الجراحات وفيات الذي اختصره مكتب
الجبر بوضع حروف ثابتة عن الاعداد وصيره اعلم المساحة كالمنطق
لسائر العلوم وبيار لسكو الذي هندس بناء الورفر وفليبار داورم
الذي هندس قصر مودون وقصر التويلري والأول والثالث
بياريس يسكن بهما ملوكها والثاني بقر بها ثم ان فرنسا وان بلغت
في هذا الوقت ما بلغت من التمدن والتعذيب وفاقت أعما كثيرة من
تقدمها الا انها لم تضاه نظائرها حيث لم يكن اسنانها في ذلك الوقت خالصة

من الشوائب ومن مشاهيرها في تلك المدة أميو وما رو فالأزل في الانشاء
والثاني في النظم يتميزا بسلامة السليقة وقلة التعقيد ومنهم ربل متقن
صياغة مثالب العجوة ومونتان الفيلسوف الذي سهل طرق المعاني
وأداءها بالفاظ راسقة وشرح ماهية الانسان غير محمول بعين الرضى
على تحسين معانيه ولا بعين الخط على تقبيح محاسنه وفي هذا القرن
اشتهر بإيطاليا بين أرباب الصناعات وقابل وميكلانج
وليوناردو داوينشى وأشخاص آخرون في صناعة الدهن والنقش
والبناء فبهم ربلا هذمت تجدد البوزار في سائر فواحي أوروبا وفي
القرن السابع عشر بلغت العلوم الرياضية والادبية في أوروبا الى
الغاية القصوى وذلك بكثرة العلماء الذين غنتهم المعارف حتى صار
من كان يعد من مشاهير العلماء في القرون الماضية يعد من طاقمهم في هذا
القرن خصوصاً أهل فرنسا الذين ترقوا في سائر المعارف وتقدموا من
عداها من أهل أوروبا في الفصاحة نفاً ما وثراً وفي صناعة البوزار
المتقدم يباينها من مشاهير هذا القرن باسكالى المشتهر بفن الحساب
والطبيعات والانشاء ألف كتاباً سماه بماترجته مكاتيب اهل
القرى وهو من أشهر ما ألف في الأرسال وتعرض فيه للقدح في سيرة
الحزب ويت حزب يعرف باليسوعية دأبهم جلب الناس بكل وجه
يمكن الى الديانة النصرانية والمدافعة عن السياسة البابوية ومنهم دكارت
المعدود في العظمة الاولى من مخترعى العلوم الرياضية باستعمال قواعد
المجهر في المساحة واتقن التصرف في علم الفلك وهو من أشهر العلماء
الذين هذبوا اخلاق البشر ثم بوردلو وماسليون اللذان أظهرتا
فصاحة لم تكن لاحد قبلهما من خطباء ديارهم ثم بوسوى الذى بلغ

في حسن التأين وفي خطبته على التاريخ العالم السائرة مسير المثل عند
 اهل اوربا درجة لم يبلغها احد بعده ثم بوالوا الذي بين قواعده الشعر
 عندهم ثم لابرو بار المعداد من السابقين في علم التهذيب ثم فنلون
 صاحب التأليف المشهور المسمى تلجالك الجامع لاسباب التهذيب
 البشري ثم كرنيل ورأسين اللذان لا يقاسان في التراجيديا
 الابشاهير اليونان وهي محاكاة المحروب والوفائع والكوميديا وهي
 محاكاة امور في قالب الهزل ثم مولير في الكوميديات ولا فوتين
 في الامثال تقدما من كان قبلهما وفي القرن المذكور ظهر بالمانيا
 المحكم لينتس وكان له شهرة في علم التاريخ والطبيعات لاسيما
 الرياضيات والفلسفة فقد كان له فيما البد الطولي وفي هذا القرن
 تميز علماء الانكليز عن غيرهم باتقان علم الهيئة والفلك ففهم هالي الذي
 شرح خواص الهواء وأسرار مد البحر وجوهره واسرار المغناطيس
 وحركات ذوات الازناب وارتكاب المساق والاضطراب في تطلب العلم
 من نوازل الاقطار حتى بلغ جزيرة صانت الاثن في البحر المحيط ورسم
 على صفو رها ناطقة نجوم القمر المجنوي من الهيئة وبذلك ارتفع شأن
 رصد غرينتس في انكارة ثم المنجم فلانستيد الذي بين ملاحظات
 عديدة في علم الفلك تلقاها الناس بالقبول ثم نيوتن المشتهر اشتها را
 أنسى به ذكر سابقيه وله تأليف كبير أحدث به في الفلسفة تغييرا
 غريبا وقع من الناس موقع الإعجاب وفي ذلك الوقت ظهر من شعراء
 الانكليز دوايدن وبوب ومن كتبة الانشاء أوسون وفي القرن الثامن
 عشر حازت فرنسا خمسة اشخاص من مشاهير الكتبة بذلوا الجهد
 في ايضاح طرق الفلسفة وتشييد مبانيها وهم فوتنيل الذي انجسجت

مكتابه فيها ثم يوفون مشفع افلاطون و بلين الذي كساعلم الفاعفة
 رقة التعبير في كتابه الذي خلد ذكره وأعرب عن رقة طبعه
 ودماثة اخلاقه ثم موناسكيو الذي صرف همهته الى كتب السياسة
 وأبانت تصانيفه عن غاية معرفته بها وكفى شاهدا على ذلك ما كتبه
 في السبب الذي كبرته الدولة الرومانية وتعاضلت والذي سقطت به
 وانقرضت وهو كتاب عجيب يحتوي على تعليقات صادقة وعبارات محررة
 راشقة وكتابه الآخر المسمى بحكمة القوانين الذي بين فيه الحقوق
 الانسانية وقسمها الى ثلاثة أقسام أولها الحقوق المعتمدة بين الامم
 في خلطتها السياسية والتجارية وثانيها حقوق الدول على رعاياها
 وبالعكس وثالثها حقوق الاهالي فيما بينهم ثم قسم حالة الدول الى
 ثلاثة اقسام ايضا الاول الدولة الوراثية خلفا عن سلف المطلق
 التصرف بالقيود الثاني الدولة الوراثية كذلك المقيدة بالقوانين
 الثالث الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين أيضا والجمهورية
 عندهم كناية عن انتخاب الامة رئيسا لدولتهم يتصرف في ادارتها بمقتضى
 القوانين مدة حياته او مدة معلومة ثم ينتخب غيره وبين ما ينشأ
 من الخير والشر عن الاحوال الثلاثة وهو معدود عند أهل اوربا
 قانونا صحيحا في الاحكام ومن تمثيلاته البدعية تشييد المستبد في تصرفاته
 من يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها وله في غير ذلك
 تأليف عديدة تلقاها الناس بالقبول ورابعهم ديمير صاحب التأليف
 المحلى بقلائد القواعد المحاوى باوضح بيان ما كاد يأتى على سائر
 لغزائده وخامسهم كندلياك الذي بسط اشعة التحقيق على تأليف

لوك الانكليزي في علم الفلسفة ومن مشاهير القرن الثامن عشر
ولير وهو من اخذ راية الكتابة باليمين والشمال واشتهر في سائر
فنونها واشتهار الدجال في الاجيال ولولم يحمله انحلال العقيدة على
عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع يعارفه
اعم ومنهم جاتجك روصو وهو نظير واتير في الشهرة وله من حسن
التعبير ما لا تستقر معه الاوهام وهذان الكاتبان الجيدان هما
الاذنان انشاورة اهل فرنسا سنة تسع وثمانين وسبعمائة والف
الموافقة اسنة مائتين وألف هجرية وهما اسبابها واستجلا وقوعها
ومنهم جان باتيست روصو صاحب الاشعار والماني الراقية ومنهم
لوساج مؤلف جيللاس الكتاب المحتوى على المقامة الفاسفة الذي
هو من أحسن ما ألف في بابيه ومن مشاهير هذا القرن لناوس من
أهل السويد اشتهر في الطب يعبات وفيه ظهر بالمانيا الشاعران
غوتي وشارفالاول فاق اقرانه في محاسن الآداب والثاني استحق اسم
المجدد ابتماطرات الامان فانه ركب العبايا معتبرة ينشد فيها مستطرفات
الاشعار وله تأليف في التاريخ شاهدة بتقدمه في ميدان الافكار
كما ظهر فيه بانه كثره المؤرخون الثلاثة الذين تشرف بهم وطنهم وهم
غبيون وهيوم وروبرثسون ثم ظهر بها أيضا آدم سميت الذي فاق
اقرانه في علم الرياضيات والاقتصاد السياسي والمعلم الطبيعي بانكس
والهجراحيان وايم هنتر واخوه جن وكاوندش الذي ملل اجزاء المساء
والفلم يكون برادلي وهرشل وينجمن فرانكلن الذي خلد اسمه
بيان الامور المتعلقة بالمجاذب المغناطيسية ومن مشاهير انكثرة
في القرن المذكور اركرايت الذي اخترع آلة غزل القطن

ثم خرج من صف العامة ثلاثة اشخاص استنبطوا لهذه الآلة ما اكسبها قوة غير محصورة وهم سميطن وفلطن وجامس وات وهذا الاخير هو الذي اخترع الكيفية الجيية في الارتفاع بالآلة البخارية التي اخترعها أولا نيوكن كما ظهر بهذا القرن الخدمات الجيية الهائلة على يد المهندس برادلي فتضاعفت طرق المواصلة بالانكثرة وفقت الحبلج العديدة في الاماكن التي كانت معطلة وبذلك تمت نتائج الايدي واتسعت دوائر متجر الانكليز وثروتهم وارتفع شأن السياسة من النتائج كثرة استخراج معادن الارض بسهولة المناولة والمواصلة وكذا جلب القطن والمكان وغيرهما واصطناع الاقمشة منها في اسرع وقت كل ذلك بمعونه الآلات المذكورة وقد كبرت بلدانها الصغيرة لا تساع نطاق المتجر فيها حتى صارت من البلدان العتيرة وهاك مثالا جزئيا تعلم به التبديلات الخطيرة الواقعة في احوال المتجر وهو ان قيمة ما كان يخرج من سائر بلدان انكثرة من القطن المستوع لم تكن في اوائل القرن الثامن عشر تتجاوز خمسمائة الف فرنك في السنة وفي اواسط هذا القرن بلغت قيمة ما يخرج من ذلك في السنة خمسمائة مائون فرنك ولتسك عنان القلم هنا حيث بلغنا الى القرن التاسع عشر الذي صار فيه المشاهير بالعلوم والصناعات اكثر من ان يحصوا والمعاون فيما يز يدنوع البشر تحسنا اجل من ان يضبطوا ولم يزل الملوكة يرغبون الناس في اسباب التمدن وينشطونهم بالجوائز وعلامات العناية وبوضع صور مشاهيرهم بمجامع العامة لتوفير دواعي البحث عما يمكن ان ينفع جنسهم ويخلد ذكرهم

*(تلخيص المكتشفات والمخترعات) *

في أوائل القرن الرابع عشر استعمل اهل اوربا في سفنهم البوصلة
المنقولة عن العرب كما تقدم وكشف اهل البرتغال عدة جهات من شطوط
افريقية الغربية وأحاطوا بالجهة المجدوية من راس الزعرعة المسمى
من ذلك الوقت برأس الرجاء الصالح ووجدوا بذلك طريق الهند
في البحر وأخذوا فيم اعدة مستعمرات وفي سنة ست وثلاثين واربع مائة
والف اخترع المطبع بالمانيا وفي سنة ست وثمانين واربع مائة والف
وجدت فريكة الحرير بمدينة ليون من فرانسأ وفي سنة اثنتين وتسعين
واربع مائة والف كشف كريستوف كولومب أميركا وفي القرن
السابع عشر حدثت فريكة الفان بانكلترة وفرنسا وظهرت المرأة
التي تكبر الاشياء المتقدم ذكرها وظهرت البوصلة أي بيت المسكاتب
وتحرر ميزان الهواء بالوجه المتقدم وفي سنة ثمان واربعين وست مائة
والف أظهر استعمال السكين بأوربا وفي سنة سبع وستين وست مائة
والف استعملت فريكة نسج البسط الرفيع بباريس وفي سنة اربعين
وسبع مائة والف انشئت فريكة الذكير المذاب بانكلترة وفي سنة
اثنتين وخمسين وسبع مائة والف اخترع فرن كان جواذب الصاعقه
التي تجذب القوة الكهر بائيه من السحاب وتدخل بها في الارض وفي سنة
ستين وسبع مائة والف تأسس بباريس محل تعليم الصم البكم والعمى
القراءة والكتابة والرياضات ثم اقتدى بذلك بقيه عمالك أوربا حتى
انه يوجد اليوم بها من الاماكن المخصوصة بتعليمهم نحو مائة وخمسين
وكيفية

وكيفية ذلك في الاصحاح الا بكم ان يروه صور الحروف ويصلحوا معه
على تخصيص كل حرف منها باشارة مخصوصة في الاصابع ثم يحضروا له
النقش المراد تعريفه اباء ويكتبه اوجهه على مقتضى تلك الحروف
الاشارة فيتم هذه الواطة يصير قابلا لتعليم لتيسر الكلام معه بسهولة
وفي الاعشى يجعل حروف له ذات اجرام فذلك يقبل تعلم القراءة والكتابة
واذا اريد تعليمه الجغرافيا ترسم له الخريطة اجراما موسومة فيسهل
تعليمها اباءا جدا حتى يصير بحيث متى طلب منه تعيين محل من الارض
او بلد من البلدان وضع يده عليه بدون مشقة وفي سنة ست وسبعين
وسبع مائة وألف اخترع الطبيب جنرال الانكليزي من مدينة بركلي
كيفية تلقيج الحروف وقد تنازع مؤرخو الانكليز والفرنسيين
وامير كافي اختراع الآلة البخارية فكل يدعي ذلك لاهل ملكته
والذي حورده اراغو الفسحي الفرنسي فرساوي هو ان الماكينجي هرون
الاسكندرني فكر في قوة البخار والمنافع التي يمكن تحصيلها به
وكان ذلك قبل الميلاد المسيحي بمائة وعشرين سنة لكن بقي هذا الرأي
عقبا عدة قرون ثم في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وألف من الميلاد
المذكور كتب بلاسكودي غراي الاسمي يدولي الاصول التي يمكن
حصولها من تلك القوة وفكر في استعمالها وكتب مثل ذلك سلون
دوكوس الفرنسي في سنة خمس عشرة وستمائة وألف ثم في سنة
ثلاث وستين وستمائة ألفا استقل بهذا الشأن ورشتر الانكليزي
ان ما انتجته فكرته لم يكن كافيا في حصول الانتفاع بتلك القوة
في سنة تسعين وستمائة وألف ففكر في شأنها المهندس دنيس باين

والفالى أن تم واستعمل في سنة خمس وأربعين وثمانمائة وألف
وقد شاع العمل به الآن وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف
ارتفع في الهواء بالبالون موثقا في فرنساوى والبالون قبسه من
الحرب مصنوعة بكيفية لا ينفذ بها من مساها الغاز الذي هو أطف
من الهواء فتملا القبة بتلك المادة فتصعد في الجو لصير وزنها أخف
من الهواء وفي سنة أربع وتسعين وسبعمائة وألف اخترع ولنا الميل
الذى يستعمل للتدوير وللتغراف الكهر باقى وفي سنة إحدى
وثمانمائة وألف اخترع جكار الحادى آلة النسج التى تنج بدون
واسطة اليد وهذه الآلة أوزنت تبدا كبيرا فى أمر النسج وارتفع
بها شأن فبر يكت ليون بفرانسه التى تصنع الاقمشة الحريرية
وغيرها ولذلك رفع اسمها صورة المخترع المذكور ببطحاء المدينة اظهرا
لمخترعهم له وفي سنة ست عشرة وثمانمائة وألف ظهر بلندرة حادى
اسراج الغاز كما ظهر بها فى السنة المذكورة التى توغرائى وهى
كيفية تسهيل استيعاب الكتب جميع ما ينطق به اللسان المر يبع
باصطلاح مخصوص والواضع لها رامزى من اهل سكرتولاند وفي سنة
تسع وعشرين وثمانمائة وألف ظهرت اول كرويه تامة فجرى على
طريق من الحديد وهى من مخترعات المهندس ستوننسن
الانكليزى واخترع ويتصطون الانكليزى أيضا الكيفية
المستعملة فى التلفراف المذكور واخترع نيبس ودغيرا الفوتغرافى
أى ارتسام الصورة بواسطة المرآة وبقامها ولهذه الصناعة فوائد جمة
فى الطبيعات وانفلك

وما كان تقدم أهل أوربا في ميدان التمدن الذى من نتائج
الاكتراعات المتسارعة انما كان بتهدى طرق العلوم والفنون
وتسهل اسباب استحصاها وكان للمملكة الفرنساوية مزيد شهرة
بجسارتها تنظيم اموالها والتعلم والتعليم رايشان نيين تراثيها الناجمة
ليقاس عليها ربة الممالك لاقتداء بعضهم ببعض في مثل ذلك فنقول
اعلم ان طبقات المتعلمين عندهم ثلاث لان التعلم امامة دى اوسط
اومته وانقسام الفنون الى هذه الطبقات باعتبار سهولة الفن
وصعوبته فالفنون الاولية مثل علم الاخلاق واصول الديانة والقراءة
والكتابة والمفردات اللغوية واصول الحساب والوزن والكيل
واصول التاريخ والجغرافيا ومبادئ سر الطبيعة والاستدلال
بالموجودات ارضية ومبادئ الفلاحة والصناعات وقانون حفظ
الهمة واصول المساحة ورسم الارض والتصوير الخطى والامان
وكيفية تقوية الاعصاب بالمحركات الرياضية فهذه الفنون الاولية
تدرس في المكاتب العمومية المقامة من الدولة او الابلدة او البلدة
او القرية وفي المكاتب المعلقة ومحال الترجمة المقامة من خصوص
اشخاص من الناس وجعيات من المحسنين واما فنون الطبقة المتوسطة
التي ينتقل اليها بعد تحصيل مايجب تحصيله من المعارف الاولية فهي
علم اللغات القديمة والحديثة وعلم البيان والخط والفلسفة والعلوم
الرياضية والطبيعة والتاريخ وجميع هذه العلوم تدرس في مكاتب
الدولة ومكاتب لاهل البلدان واما كن خصوصية ومحال صغيرة
تعليم الرهبان واما الطبقة اشرية فتم من يتعلم بالمكاتب العالية
منهم من يحضر مجامع مدرسي العلوم والانشاء الذين يميزون الطلبة

بعد امتحانهم بمحضرهم والجامع المشار اليها مشغولة بدراسة العلم
اللاهوتى واحكام التوازل وصناعة الانشاء ونحو ذلك وتتنوع الى
خمس اصناف احدها يحتوى على ثمانية مجامع وظيفتها تعليم العلم
الالهى ستة منها على مقتضى العقيدة الكاثوليكية واثنان على مقتضى
العقيدة البروتستانتية ومن شعب هذا العلم عندهم فروض الديانة
وعلم الاخلاق ونظام الكنيسة والكتاب الموصوف عندهم بالمقدس
واللسان العبراني والصنف الباقى يحتوى على تسعة مجامع وظيفتها
تدريس علم التوازل المنقسم عندهم الى الفروع العامة واهلية واحكام
الرومان والقانون المدنى واحكام المجازيات واعمال المجالس وقياس
المقويات باحكام البلدان والقانون التجبرى واحكام الادارة العمومية
واحكام مايقع بين الامم والاحكام الفرنساوية والصنف الثالث
يحتوى على ثلاثة مجامع وظيفتها دراسة علم الطب المتناول للتشريع
وتركيب الحيوان وتاريخ الطبيعة المتعلق بالطب وقانون الصحة
ومعرفة الامراض الظاهرية والباطنية وكيفية المعالجة ومواد
الادوية وعلاج الجراحات واحوال الولادة. وهناك مكاتب كبار لتعليم
كيفية تركيب الادوية ومكاتب اخرى للاستعداد لتعامل فن
الطب والصنف الرابع يحتوى على مجامع وظيفتها دراسة علوم مختلفة
كعلم الهيئة والفلك وعلم الجبر والمساحة وعلم المكنيك اى التصرف
بالالات كبحر الانتقال وعلم استعمال الآلات الطبيعية كالتمثيل
بالمرآة وعلم الكيمياء وعلم طبيعة الارض والنبات وتركيبه وعلم طبائع
الحيوانات والصنف الخامس يحتوى على مجامع وظيفتها تعليم الانشاء
وسائر العلوم الادبية وعلم الغسفة وتاريخها وآداب اليونان والاشعر

اللاتيني والفرنساوي وآداب الاجانب والنحو والتاريخ قديمه وحديثه والجغرافيا وهناك مكاتب للاستعداد للفنون المذكورة ويقرأ فيها تاريخ فرنسا كالجغرافيا الطبيعية والسياسية وعلم الرسم ومن عوائدهم ان يجتمعوا كتبهم في المكتب العالي المشهور بمكتب فرنسا وهناك مكتب لتعليم اللسان المشرقية وعمل مخصوص بتعليم أخذ الاطوال وعمل الرصد السلطاني بباريس والمحل المعدل وضع الحيوانات المصبرة على اختلاف انواعها وانواع الاجار والمكتب السلطاني المعدل لخريجات الجغرافيه ومكتب البوزار اي الصناعات المستخرقة ومكاتب اعمال اليد ومكتب التصوير السلطاني وعمل تعلم قواعد الموسيقى ومكتب تعليم مخاطبات التباطرات وجميع المكاتب المشار اليها تحت رعاية وزير المعارف وما عداها من المكاتب المخصوصية فانها وان كانت خارجة عن دائرة الادارة العمومية الا انها لا تخرج عن دائرة المراقبة حيث يجب تفقدها فيما يتعلق بتنظيم الاخلاق وحفظ الصحة وموافقته التعليم لمقتضى قوانين البلاد ثم ان هناك خمس جمعيات من كبار علمائهم يسمى كل منها بالاكاديمية وتسمى الجمعية الاولى اكدمية فرنسا والثانية اكدمية المخطوط القديمة والثالثة اكدمية العلوم والرابعة اكدمية البوزار والخامسة اكدمية السياسة وتهذيب الاخلاق فوظيفته الجمعية الاولى الاعتناء بتصفيه اللغة وتحرير اوضاعها ووظيفته الثانية تحرير الاقلام القديمة واستخلاص الاسماء العلمية والنظر في الهيكل القديمة والتواريخ ووظيفته الثالثة نشر وسائل في سائر انواع العلوم وهذه الجمعية بمثابة مجلس لتحرير سائر العلوم ووظيفته الرابعة النظر في احوال الابنية

والادهان والنقش والتصوير والموسيقى وهذه الجمعية هي التي تعين من يستحق الدخول في مكتب البوزار ووظيفته الخامسة النظر في احوال علوم الفلسفة والاحكام والمحقوق العاقبة والا كوزنى بوليتيك اى الاقتصاد السياسى والاستاتيك وتاريخ الفلسفة العمومى والادارة السياسية والمالية ولكل من هذه الجمعيات تعيين جوائز المؤلفين من مقدار مال أو نيشان من الصنف المعروف عندهم بالمدايا والجوائز نارة تكون من الدولة وأخرى من بعض أعيان البلد ترغيبا فى الاندفاع وهناك مكاتب أخرى لتعليم سائر العلوم والفنون الحربية البرية والبحرية وجمعيات أخرى وظيفتها الاطاعة فى أسباب التقدم فى المعارف والفلاحة وسائر الصنائع منها جمعية الطب وادارة المؤريات السلطانية وجمعية الترفيب فى الصناعات الادمية والجمعية السلطانية المركزية فى الخضر والنباتات المتكفلة بجلب غير الموجود منها من سائر الاقطار وتديره بما يكون سديا فى قهاته عندهم حتى صار بهذه الوساطة يوجد عندهم غالب ما يوجد فى سائر المعمور وجميعه فى الجغرافيا وأخرى فى بنية الكثرة الارضية وأخرى فى حوادث الحجو والاستار القديمة وأحوال الامم وأخرى فى خصوص احوال آسيا وأخرى فى الاقتصاد السياسى وأخرى فى مبادئ العلوم وأخرى فى الجراحات وأخرى فى تركيب الانسان وأخرى فى تواريخ فرنسا كما ان باياتل فرنسا كثيرا من هذه الجمعيات ويوجد كثير من المدارس لتعليم كفايات التصوير واعمال اليد وهناك مكاتب تتعلق بالمعادن ومكتب كبير لاصول التجارة واماكن خصوصية لذلك تحت رعاية الدولة وثلاثة مكاتب سلطانية لتعليم البيطرة ومثلها لتعليم فنون الفلاحة واثنان وخمسون

جريا لامتحان قواعد الفلاحة والعارفون بقواعد الفلاحة
متوزعون في بلدان المملكة ومكاتب الفلاحة ما هو دائم التعليم
ومنها ما لا يفتح الا في اوقات مخصوصة ومن تافت نفسه الى تفاصيل العلوم
والفنون المشار اليها فعليه بطالعة الفصل الثالث عشر من المقالة الثالثة
من رسالة العالم البارع الشيخ زفاعة احد علماء مصر المشامة بتقليص
البريز الى تقليص باريز فقد كشف فيها الغطاء عن تدبير الاقصة
الفرنساوية حتى رفعت راية التمدن واجاد في ذلك وأفاد

ومن آثار استنساخهم بتوسيع دوائر العرفان الذي هو أساس التمدن
والتهذيب لنوع الانسان كثرة خزائن الكتب الجامعة لآثار الفنون
وتسهيل طرق الاستفاح بها بحسن الادارة والترتيب المحاسن لمواد العوائق
كما يتضح ذلك بالتفصيل الآتي ولنقتصر في بيان كثرة الكتب
بالبلدان الاورباوية المعتبرة على ما حزره تسالي وزير المعارف
العمومية بايطاليا بعد تمام بحثه عن ذلك سنة سبع وستين وثمانمائة
و ألف فذكر ان الموجود بخزائن ايطاليا من الكتب المجلدة أربعة
ملايين ومائة وأربعون ألفا ومائتان و واحد وثمانون مجلدا غالبيتها
من اسكتب القديمة المتعلقة بالديانة وبخزائن بريطانيا العظمى مليون
وسبع مائة واحد وسبعون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون مجلدا
فيكون لكل مائة نفس من الاهالي ستة مجلدات وعلى قياس هذه النسبة
يكون لكل مائة نفس من اهالي ايطاليا احد عشر مجلدا وسبعة
أعشار المجلد ويوجد ببلاد الخمسة مليونان واربع مائة وثمانية
وثمانون مجلدا وبالنسبة للاهالي يكون لكل مائة نفس ستة مجلدات

وتسعة اعشار المجلد ويوجد بالبروسية مليونان وأربعون ألفاً
واربعمائة وخمسون مجلداً فيكون لكل مائة نفس من أهاليها
احد عشر مجلداً وفي الروسية ثمانمائة ألف واثنتان وخمسون ألف
مجلد فيكون لكل مائة من أهاليها مجلد واحد وثلاثة اعشار المجلد وفي
البلجيكية خمسمائة ألف وتسعة آلاف ومائة مجلد فيكون لكل مائة
من الاهالي عشرة مجلدات واربعة اعشار المجلد وفي باواريا مليون
ومائتان وثمانية وستون ألفاً وخمسمائة مجلد فيكون لكل مائة من
اهاليها ستة وعشرون مجلداً وخمسا المجلد كما يوجد بفرنسا أربعة
ملايين وثمانمائة وتسعون ألف مجلد فيكون لكل مائة من اهاليها
احد عشر مجلداً وسبعة اعشار المجلد (فهى مثل ايطاليا قال)
وبهذه النسب يظهر ان مملكة باواريا أكثر كتباً من غيرها بالنسبة
الى عدد الاهالي وان كان الموجود بفرنسا لا يوجد بغيرها من
الممالك وفي مدينة باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة
فرنسا كلها ففي قاموس العلوم المؤلف في هذه السنين الاخيرة ان
المخزاة السلطانية بباريس بها من الكتب على ما تحرر في سنة
ثلاث وستين وثمانمائة وألف مليون كتاب مطبوع وثمانون ألفاً
يخط اليد وغاية ما كان بها وقت تأسيسها في سنة ثمانين وثلثمائة
والف تسعمائة وعشرة مجلدات وصار بها في سنة سبع واربعين
وخمسمائة وألف ألف وثمانمائة وتسعون مجلداً ثم في سنة اربعين
وسمائة وألف صار مقدار ما بها ستة عشر ألفاً وسبعمائة وستة
واربعين مجلداً وفي سنة اربع وثمانين وسمائة وألف صار قدر

ما بها خمسين ألفا وخمسمائة واثنين واربعين مجلدا وفي سنة خمس
وسبعين وسبعمائة وألف صار بها مائة وخمسون ألف مجلد وفي سنة
تسعين وسبعمائة وألف صار بها مائتا ألف مجلد واليوم بها مليون
من الكتب المطبوعة وثمانون ألفا بخط اليد كما تقدم كما بها أربعون
ألف خريطة في فن الجغرافيا وعدد كبير من الرسائل ونحوها مما
لا يطلق عليه اسم المجلد وبهذا التفاوت الكبير الواقع في مواد
المعارف يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك فان ترى الخزانة المذكورة
في مدة اربع مائة وعشرة أعوام من مبتدا تأسيسها الذي هو سنة
ثمانين وثمانمائة وألف الى سنة تسعين وسبعمائة والف لم تحصل بها
الامانة ألف مجلد ومن ذلك التارخ الذي هو مبدأ الحرية بفرنسا
الى ثلاث وستين وثمانمائة وألف التي هي تمام اربع وسبعين سنة
من ذلك الوقت ازداد في الخزانة المذكورة ثمانمائة وثمانون ألف مجلد
دون ما يمكن حصره من الرسائل المشار اليها وعلى هذا يقاس سائر
اسباب التمدن ويوجد بباريس ثلاثون خزانة سوى الخزانة المذكورة
متفاوتة في الكبر كما توجد خزائن معتبرة في سائر تخوت الممالك وأما
بيان حسن ادارتها المسبب لغاية سهولة الانتفاع بها فهو ان اماكن
الخزائن المشار اليها تفتح كل يوم قدر خمس اودت ساعات ومنها
ما يفتح بالليل ايضا قدر ثلاث ساعات وذلك فيما عدا يوم الاحد وايام
الاعياد التي لا تتجاوز مدتها شهرا في السنة وايام التسريح للاستراحة
وانما تفتح في سائر الايام لاطلبة الراغبين في الاستفادة وأما الذين
يأتون بقصد مجرد الاطلاع فلا يسوغ لهم ذلك الا في يومين من الاسبوع

والخزائن المشار إليها تظار وخدمة بقدر الكفاية وحولها بيوت لتعلم
تسخن في الشتاء وهي محتوية على آلات الكتابة عدد الكاغد فيأتي
به حريد الاسنة مساح ويطلب من المكاف الكتاب الذي يريد ببطاقة
يدفعها اليه واذا احتاج الى اكثر من كتاب يبين السبب فيها
فيدفعها للمكاف للخدمة فيحضر له في الحين ما يطلب وحسين خروجه من
ذلك المحل سلم للمكاف ما اخذه من الكتب وهذه المنحة مبدولة لكل
راغب سواء كان من الاهالي او الاجانب اقامن مكان من الوظائف
المشهورين فسوغ له نقل الكتب للانتفاع بها في مهلة اقصاها عام اذا
طلب ذلك بالكتابة وبين السبب الداعي لاختار الكتاب وعند مضي المدة
اما ان يرجع ما اخذ او يطلب تجديد التسوية مدة اخرى ومما يناسب
سوقه هنا اعتناؤهم بأسباب تهذيب أبناء العائلة للمكبة وتوسيع دائرة
معارفهم ولا شك ان ذلك من الاصول المعتبرة التي دفعه في ادارة الامم لمكة
غاية النفع

فنفقول من عاداتهم ان من يبلغ من أبناء العائلة سن التربية ينتخب له
رئيس تلك العائلة معين مهرة يعلمونه من فنون العلم ما يناسب حاله والمراد
منه من كل ما يهذب اخلاقه ويوسع في المعارف فطاقة فاذا بلغ من التعلم
أشده يوجه الى المهملك الاجنبية لمشاهدة احوالها ومطالعة سياستها
وأحكامها ومالها من التقدم في العلم ان وغيره ليتحقق بالمشاهدة ما بينها
وبين بلاده من التفاوت ليعتبر اسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة
فيتجنب ما أنخرت به بلاده ان رأى غير ما خيرا منها ويعتني بما تقدمت به
ان رآه دونها فاذا بلغ من العمر نحو ثمان عشرة سنة يصير من أعضاء
الجلس الاهلي يحضره ولا يكون له كلام فيه الا اذا بلغ من العمر خمسا

وعشرين سنة وفائدة ذلك التدرب على الامور السياسية ومما اقتضاه حتى
يستكمل المملكة فيها ماعما يحصل له بذلك من الخبرة بتطبيقات رجال
السياسة المتأكد معرفتها على من يتوشع للرئاسة التي هي اعظم الخطط
البشرية واصعبها فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات
الاحوال المختلفة ما لا يجب على غيره لاسيما معرفة اهل الخبرة والروية
والخبرة من رجال المملكة ليمتحنهم بالخطط المعبرة مع التفطن لدسائس
الحساد والفسدين فان العلو ب من الملوك ليس هو مجرد فصل النوازل
الشخصية كما هو مشاهد في بعض الملوك الاسلامية ولا مباشرة جزئيات
الادارة التي يمكن اجاؤها بغيرهم من الموظفين وانما المطلوب منهم النظر
في كليات الامور من معرفة الرجال اللائقين بالخطط وامتحنهم
وتعقبهم بالمراقبة لارشاد جاهلهم ونزج متجاهلهم وتفقدا احوال الرعايا
والاعانة على تكثير الصنائع والعلوم الموصلة الى تهذيب الاخلاق وتعمق
الارزاق والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية وتحصين النغور
بالعدة المانعة والقوة الدافعة لمحافظة الدين والوطن واصلاح احوال
الخطاة السياسية والتجربة مع الدول الاجنبية بما يشمو به عز المملكة
وشروطها الى غير ذلك من الصغريات فان سعادة الممالك وشقاؤها
في امورها الدينية انما تكون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك وبقدر
مالها من التنظيمات السياسية المؤسسة على العدل ومعرفتها واحترامها
من رجالها المباشرين لها نقل عن المؤرخ بوليبيوس اليوناني الذي
نسكاه على سياسة الامة الرومانية وما وقع بينها وبين اهل قرطاجنة من
الحروب انه قال في معرض الاستدلال على ان المباشرين للامر يلزمه

أن يكون عارفا بأصوله ما معناه إذا كان المريض لا يرتجى له حصول
العافية على يد طبيب مجهول نوع المرض والدواء المناسب له فكذا
المملكة لا يرجى خيرها واستقامتها إذا كان وزراؤها المباثرون
مجهلون أصول سياستها وقوانين شرائعها وصادقاتها ولا يخفى أن حصول
خير المملكة إذا كان يتمتع بسبب الجهل بأصول السياسة فامتناعه إذا
انضم لذلك عدم وجود تلك الأصول بالكلية أخرى وأولى لأن السبب
في الحالة الأولى دائري بين الجهل والتجاهل وكلاهما أمر عارض يمكن
إزالته بتعديل المباشرين أو إرشاد جاهلهم وإلزام متجاهلهم بالمجربان
على الأصول المحفوظة أما إذا لم يوجد من تلك الأصول شيء يرجع إليه
وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه فإن هاته الحالة يتسع
فيها مجال الأغراض والشهوات من الآمر والمأمور وربما يؤل أمر
الدولة إلى الاضطلال والدثور ولله عاقبة الأمور هذا ولما تضمن
ما أوردناه في هذا المجال الإشارة إلى أن المحررية هي منشأسة نطاق
العرفان والتقدم بالممالك الأوروبية رأينا من المتأكد بيان معنى المحررية
عرفا لدفع ما عسى أن يقع من الالتباس فيها

فنتقول إن لفظ المحررية يطلق في عرفهم بإزاء معنيين أحدهما
يعمى المحررية الشخصية وهو إطلاق تصرف الإنسان في ذاته
وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لإبناء جنسه
لدى المحكم بحيث إن الإنسان لا يخشى هزيمة في ذاته ولا في سائر
حقوقه ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المقررة لدى
المجالس وبالمجمل فالقوانين تقيد الرعا كما تقيد الرعية والمحررية
بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الأوروبية إلا في الدولة

(٧٩)

البابويه والدولة المسكرية لانها مستبدتان وهما وان كانتا ذواتي
احكام مقررة الا انها غير كافية تحفظ حقوق الامة لان نفوذها موقوف
على ارادة الملك المعنى الثاني الحرية السياسية وهي تطالب الرعايا
التداخل في السياسات الملكية والمباحثة فيما هو الاصلح للملكة على
نحو ما اشير اليه بقول الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من رأى
منكم في اعوجاجا فليقومه يعني انحرافا في سياسته للامة وسيرته معها
ولما كان اعطاء الحرية بهذا المعنى لساثر الالهالي مظنة لتسويت
الآراء وحصول الهرج عدل عنه الى مكون الالهالي ينتخبون
طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الاورباوين بمجلس نواب
الامة وعندنا أهل الحل والعقد وان لم يكونوا منتخبين من الالهالي وذلك
ان تغيير المنكر في شريعته من فرض الكفاية وفرض الكفاية اذا
قام به البعض سقط الطلب به عن الباقيين واذا تعينت للقيام به جماعة
صار فرض عين عليهم بالخصوص ومجلس النواب المشار اليهم موجود
في سائر الممالك الاورباوية ماعدا المملكتين المتقدم ذكرهما وله
ان يتركلم بمحض الوزراء وغيرهم من رجال الدولة بما يظهر له في سيرة
الدولة من استحسان وضده وغير ذلك من المصالح العمومية كما يأتي وبقي
وراء ذلك للعامة شيء آخر يسمى حرية المظايعة وهو ان لا يمنع احد منهم
ان يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والمجهرات التي تطلع عليها
الامة او يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمنت الاعتراض على
سيرتها وفي هذا المنع دار افتتحت المسالك الاورباوية فانهم من ناله مع
الاول فتمت له الحرية المطلقة ومنهم من ناله بشروط متبعة عند الملوك
لتي لم ترخص لرهاياها ما تيسر لغیرها اعطائه من الحقوق وذلك ان احوال

* (٨٠) *

الممالك متفاوتة بتفاوت مقاصد رعاياها فمنهم من لا ينازع الملوك الا لقصد
المحصول على ما يوسع لهم معارضة الدولة ان عادت عن سواء السبيل
واستجلابها لما فيه صلاح المملكة وحينئذ يسر للوك اعطاء تمام الحرية
لتوارد مقصد الراعي والرعية على المصلحة ومنهم من يظن به ان الباعث
له على المناضلة فرط التعصب والحمية حيث تفرق الرعايا احزابا كل حزب
يروم السياسة التي يراها اصلح للمملكة في نظره كان يرى البعض ان
تكون الدولة جمهورية والبعض يمتار ان يكون الملك في عائلة غير التي
يختارها الا آخر فينشأ عن ذلك ظن الدولة ان معارضة الاحزاب لها وان
كانت بحسب الظاهر لا يجرأها الى طرق المصلحة لكن الغرض منها
و راء ذلك وبذلك الظن الثاني عما ذكر استباح الملوك الامتناع من
اعطاء تمام الحرية الموصل لما اشير اليه * هذا وان من واجبات
الممالك التي تنال الحرية ولو خصوص الشخصية ان يقابلوا تلك النعمة
بإظهار آثارها واستجناء ثمارها بتعاطي المعارف وأنواع الصناعات
الراجعة الى الاصول الاربعة الفلاحة والتجارة والاعمال البدنية
والفكرية وبهذه الاصول قوام السعادة الدنيوية المرئية للهمة
الانسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن نظام الجماعة حتى
يكون المحترف مثلاً آمناً من اغتصاب شيء من نتائج حرقته أو تعطيله في بعض
احوال خدمته فما ينفع الناس كون ارضهم خصبة كريمة المنابت
اذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع ومن الذي يقدم حينئذ على
ازدراعها ولضعف أمل الناس في كثير من اراضي آسيا وافريقية تحد
انصب مزارعها بوراً معطلة ولا شك ان العدوان على الاموال يقطع
الآمال ويقدرة انقطاع الآمال تنة قطع الاعمال الى أن يعم الاختلال
المفضي الى الاضمحلال

ومن أهم ما اجتنبه الأوروبيون من دوحه المحرّية تمهيد المواصله
 بالطرق الحديدية وتعاضد الجمعيات التجريه والاقبال على تعلم الحرف
 والصنائع فبالطرق تستجلب نتائج البلدان القاصيه قبل فوات ابان
 الانتفاع بها بعد ان كان جلبها ممتذرا لظروء الفساد عليها في الطريق
 أول زيادة كرائها على اضعاف قيمتها وبالجمعيات تتسع دوائر رؤس
 الاموال فتأتى الارباح على قدرها وتتداول على المال الايدي
 المهسنة لتسميته وتعلم الحرف تكتسب الاموال الذريعه عن غير رأس
 مال وقد رأينا بالمشاهده ان البلدان التي ارتقت الى أعلى درجات
 العمران هي التي تأسست بها عروق المحرّية والكوتستية ومسيون
 المرادف للتنظيمات السياسية فاجتني اهلها ثمارها بصرف المجهود
 الى مصالح دنياهم اشارة الى بعضها ومن ثمرات المحرّية تمام القدوة على
 الادارة التجريه فان الناس اذا فقدوا الامان على اموالهم يضطرون
 الى اخفائها فيتعذر عليهم تحريكها وبالحمله فالمحرّية اذا فسدت من
 المملكه تنعدم منها الراحة والغنى ويستولى على اهلها الفقر
 والقلاء ويضعف ادراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل
 والتجربة

وما أشرفنا اليه من أن الشركات الجمعية من اسباب نمو النتائج التجريه
 معقول مجرب فان قوة الاجتماع معهوده في سائر الامور العاديه
 غيرها وكلما تمكن حب الاشتراك من قلوب اهل المملكه يتهد
 نمو المكاسب فيها بالبيان ولذلك كثرت الجمعيات بأوربا في سائر
 لمعاملات المدنیه والتجريه وغيرها وتكاثرت الخدميات برا وبحرا

وكثرت جماع العلوم وجميعات المحسنين للضعفاء والمساكين وتكرر
التعاون على استخراج المعادن واصطناع الخلق ومجاري المياه التي
تصعدها العفن الى الجبال ثم تنزل وطرق الحديد الى غير ذلك من
المهمات التي لم تكن تحدث لولا وجود تلك الجمعيات فمن الذي
سكان يقدر وحده على اصطناع طريق حديد أو يخاطر
بجميع ماله على فرض قدرته في احداث ما لم يقيم لهم الا باشتراك
مائتي أو ثلثمائة الف نفس بخلاف مخاطرة الواحد منهم بنزول يسير
من ماله فانها غير محجفة ولا مستعدة ثم ان الجمعية اذا كانت كبيرة
وكان فيها فائدة عمومية فان الدولة قد تضمن لها ربحا معلوما
في المائة وادارة الجمعية تكون بيد اناس ينتخبون من ارباب
المهنة لهم مزيد شهرة ومعرفة باجراء قانون الشركة وحفظ
قوائدها وعند تمام السنة يقدمون حساب ذلك مع سائر ممتلكات
الادارة ويعينون الفوائد لارباب المهنة المشار اليهم ومن أعظم
ما ستر المشاركة شق خليج السويس وطريق الحديد الجماع بين
طريق البحر المحيط باميركا ونقب جبل آلب الكائن بين ايطاليا
وفرنسا وقطع جبل البريني بين فرنسا واسبانيا لم يرو طريق
الحديد بهما واحدا من السرداب تحت وادي تامس بلندرة وعقد
الجمعية المشاهدة بمجري اميرال التي لها من العفن الجبلية ما هو مشاهد
في سائر البحور ووضع ملك التلغراف تحت البحر المحيط من انكلترا
الى اميركا ونحو ذلك من الاعانات التي وجدها في المشاركة رجال الدول
وارباب الاختراع وحذاق المحترفين ومعلوم ان قوة المجموع أشد بكثير
من قوى الجميع والناس اذا تعاضدوا على شيء توصلوا الى المقصود منه

ولو كان من اصعب الامور وكفى حجة لذلك المحادنان الهائلان وهما
بنك فرنسا المشهور ومتممرات الانكليز بالهند فان دولة انكلترة
تملكت بجمعة من تجارها تسعى كومبانية الهند مسافة ثلاثة ملايين
وخمسمائة ألف متر مربعا بها من السكان مائة وخمسة وخمسون مليون
نفس وأما بنك فرنسا فانه كان في سنة ثمانمائة والفراس ماله
ثلاثون مليون فرنك متجمعة من ثلاثين الف سهم وفي سنة ثمان
واربعين وثمانمائة والفراس بلغ ماله من النقود احدا وتسعين مليون
فرنك وبلغت كواغده المالية الرائجة بين الناس وفي المعاملة رواج
المسكوك مقدار اثنين وخمسين واربعمئة مليون فرنك وفي اواخر سنة
تسع واربعين وثمانمائة والفراس من الدولة للبنك المذكور أن يزيد
في كواغده الرائجة الى أن تبلغ مقدار خمسة وعشرين وخمسمئة مليون
فرنك وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة والفراس طالب البنك من الدولة
تجديد المدة الى تمام اربعين سنة مستقبلة فأذنت له بشرط تضعيف ماله
من النقود حتى يصير ثلثي مائتي مليون فرنك فضايف ذلك وتمت
له الدولة مطلوبه ثم ان من تصرفات البنك عندهم صرف كواغده
المحولات التي تكون مضمونة بثلاثة اشخاص يعرف مجموعهم بالملاء
الذي يناسب المعاملة بذلك المبلغ الذي تضمنته وقبض ما كاف البنك
بقبضه من المحولات لاربابها بأجر معلوم الا اذا كانت في البلد الذي
هو به فانه يفعل ذلك بلا عوض وقبول ودائع الناس بمجرد حفظها
ومراسلة عن يضع فيه مالا وتقيم الحاسبة معه واقراض المال لمن يريد
اذا دفع رهنا ثقة غير اربح والعقار من كل ما يصير عينا بسهولة كسهم
طريق الحديد والحكواغدة التي تباع من اقراض الدول والسكائن

وتحوها واعطاء كواغد المحولات على ثوابه كما يحيل عليه الثواب ايضا
وله خمسة وخمسون نائبا في بلدان متفرقة واذا أردت أن تعرف كيفية
تدرجه الى هذه الحالة الرائعة وكيف اتسعت دائرة المعاملات بأوربا
في هذه المدة الأخيرة منذ ثلاثين سنة فاعلم ان البنك المذكور لم يكن به
من الكواغد في سنة ثلاثين وثمانمائة والاف المقدار ثلثمائة وخمسين
مليون فرنك واليوم به من النقود ما تقدم آنفا وهو ما يقرب من مائتي
مليون فرنك ومن الكواغد الرائجة مع ما في الصندوق من المحولات
وغيرها مقدار ألف وستمائة مليون فرنك هذا مع ان البنك كان
في الزمن السابق مستقلا بمعاملة الناس وأما الآن فقد زاحسه كثير من
الجمعيات كجمعية معاملة الصناع والتجار والكر يدى المعينة لمعاملة
ارباب الاراضى والكر يدى المعينة لمعاملة ارباب البنوك
والجمعية العامة وصندوق الودائع ونحوها من الجمعيات وبالجملة فاذا
قال القائل ان الملايين التي كانت الناس تتعامل بها سابقا صارت اليوم
ألف ملايين فلا يكون قوله بعيدا عن الصدق

ومن أسباب تقدمهم العناية بمن اخترع شيئا لم يسبق اليه أو أجاد في عمل
مفيد فمن ذلك ان يخفوا المالكة المشار اليها مواضع معتبرة تعرض فيها
نتائج المملكة من نباتات وحيوانات ومصنوعات مستغربة ونحوها بعد
كل خمسة أعوام أو اقل أو أكثر بحسب مقتضى حال المملكة وينبغي
لذلك مجمع مركب من العارفين بمقتضى الاشياء ليتأملوا فيها فان وجدوا
شيئا منها مستبدا اعطى مخترعه قطعة من نحاس أو فضة أو ذهب تسمى
المدايا على شكل المسكوك مرسوم في احد وجهيها صورة الملك
وفي الآخر مكان العرض وتاريخه وقد يستحق من صناعته نشان

الاختراع فان قيل ما فائدة هاته القطع التي أعلاها قطع ذهب وهي لا تفي
 ببذل الجهد والمكابدة في الاختراع فالجواب ان أخذ تلك القطع زيادة
 على الشهادة له بالسكال والتقدم فيما هو بصدده من الاعمال يتوصل
 بذلك الى ما يؤمله من الرغبة في سلعة المفرة لتو مكاسبه لان صائر ما يقع
 في ذلك المجمع يطبع في صنف الاخبار ليسع في الناس وربما أعطى
 المخترع مبلغا من المال وقد كان فابوليون الاول اصدر أمرا باعطاء
 مليون افرنك ان يحدث آلة تغزل الصكتان وحسدها ومن عناية
 ملوكهم بهذا المجمع ان الملك يحضره بنفسه مع رجال دولته حضورا
 ومجيبا عند فتح المعرض وعند انتهائه يعلن للعاضرين بخطبة تتضمن
 مدح من أتي بشئ مستبدع لتتوفر الدواعي ويتنافس الناس فيما يتجنى
 منافع الوطن واذا طلب احد المخترعين من الدولة ولو تخرج المعرض قبل
 اشهاره مخترعه الرخصة في الاستعداد باصطناعه مدة لا يسطعنه غيره فيها
 الا باذنه تعطى له الرخصة في ذلك بشرط أن لا يتجاوز المدة خمس عشرة
 سنة وان يدفع للدولة شيئا معلوما في مقابلة الاختصاص وأما المؤلفات
 فانها تبقى ملكا لصاحبها مدة حياته ويختص بها ورثته بعد موته سبع
 سنين وفي بعض الممالك ثلاثين سنة ثم يرتفع التجميع المثار اليه ولولا
 هذا التخصيص ما انبعت رغبات الناس الى الاختراع والتأليف لان
 المخترع يلزمه ما لا يلزم المقتدى من اقتحام شاق الاعمال والمخاطرة
 بمصاريف التجربة واضاعة غاب الاوقات في التدبير فاذا لم يعط هذا
 الاختصاص كانت أعماله المذكورة بلا عوض حيث شاركه غيره
 في فائدتها ومن وجوه الترغيب عندهم ان من اخترع أمرا مهما تجرأ

حورته من رخام أو نحاس وتوضع في الأماكن المعدة لاجتماع الناس أو يسمى باسمه ما يتفق حدوته في تلك المدة من قنطرة أو طريق جديد أو نحو ذلك ليبقى بذلك ذكره وحاصل سياستهم في هذا الشأن اعتبار ما حقه ان لا يذبح بأى نوع يقتضيه حاله من وجوه الاعتبار كما اعتبرت ذلك الدولة العلية عند تأسيسها سوقا بدار الخلافة لعرض نتائج المملكة وقد وقع العرض المذكور في سنة ثمانين ومائتين والفر هجرية وفي سنة احدى وخمسين وثمانمائة والفر وقع بانكثرة للعرض المشار اليه ترتيب عجيب وهوانهم أسسوا محلا في غاية الاتساع والصفاء وأعدوه لعرض نتائج الممالك من سائر المعمور ثم وقع مثله في فرنسا سنة خمس وخمسين وثمانمائة والفر ثم تكرر بانكثرة ثم أعيد في فرنسا بزيادة اعتناء سنة سبع وستين وثمانمائة والفر كل ذلك ليقتدى المتأخر بالتقدم في الصناعات ونحوها مما يحصل لتجارة تلك المملكة من الاموال الغزيرة الناشئة عن معاملته ملايين من النفوس الاجانب الوافدين عليها لذلك وادارة هذه المجامع وتعيين المنازل لارباب الصناعات والبضائع وتعيين من يستحق الجزاء ونحو ذلك موكولة لنظر مجلس مرؤس بأمر من البيت الملكي اظهارا لمزيد الاعتبار

وقد آن ان تبين اصول تنظيماتهم السياسية التي هي اساس التقدم والترف المشار الى بعض آثارهما آنفا فنقول اعلم ان الامم الاوربية لما ثبت عندهم بالتجارب ان اطلاق ايدي الملوك ورجال دولهم بالتحرف في سياسة المملكة دون قيد بحجة للظلم الناشئ عنه تروا الممالك حسبما تحقوا ذلك بالا ملاح على اسباب التقدم والتأخر في الامم الماضية

الماضية جزموا بلزوم مشاركة أهل العمل والعقد الآتى بيانهم
 في كتابات السياسة مع جعل المسؤولية في ادارة المملكة على الوزراء
 المباشرين وبلزوم تأسيس القوانين المنصوصة عندهم الى نوعين
 أحدهما قوانين الحقوق المراجعة بين الدولة والرعية والثانى قوانين
 حقوق الاهالى فيما بينهم فراجع الاول الى معرفة ما لصاحب الدولة
 وما عليه ويندرج تحته امور منها حرية العامة المكافلة بضمانة
 حقوقهم ومنها تعيين اصول تصرفات الدولة جمهورية كانت أو وراثية
 كتفويض القوانين المحكومية وادارة السياسة الداخلية والخارجية
 كعمل الحرب وعقد شروط الصلح والتجارة وتعيين الوظائف
 ونصب المتوظفين من الوزراء وغيرهم وتأخير من لم تكن وظيفته
 مؤبدة (وإنما عجزنا بالتأخير لان عزل المتوظف عن الخطه التى افنى
 اطيب عمره فى خدمة المملكة لتبليها عزلا يقتضى طرحه من خدمتها
 بالمرأه لا يكون الا بذهب ثبت لدى بحالس المحكم بمقتضى القوانين)
 وكذا صرف الجاني لماعتته الى غير ذلك من ادارة المملكة
 بما لا يخرج عن مقاصد قوانينها كل ذلك من حقوق صاحب الدولة
 باطاعة وزرائه وتأسيس اصول هذا النوع يكون فى دولة فرنسا موافقة
 غالب رشدها أهل المملكة المتصرفين فى حقوقهم الخصوصية والسيادية
 وفى غيرها مراد على الشرط المذكور اما العلم أو ملك عليه مبلغ محدود
 من الاداء أو الوجاهة المعهدة عندهم بالنوبليس وموافقتهم أو ما بأنفسهم
 أو بواسطة وكلاهما ينتخبونهم لذلك والنوع الثانى القوانين المحتررة
 لفصل نوازل السكان والنسوية بينهم فى الجاني والمخرج بحسب المكاسب
 والاستحقاق الى غير ذلك من أحوالهم الداخلية وتأسيس هذا النوع

أو يبدله بما هو البق بالمال يكون بموافقة المجلسين أعني المجلس الأعلى
المركب من أمراء العائلة الملكية ومن ينتخبه الملك من أعيان المملكة
مؤبداً وظيفته ومجلس الوكلاء المركب من ينتخبهم الأهل في المناضلة عن
حقوقهم والاحتساب على الدولة فأهل هذين المجلسين هم أهل العمل
والعقد عندهم فكل ما وافقوا عليه مما لا يخالف تلك الأصول اللازمة فيها
مشاركها العامة يصبر من شرائع المملكة

وأما مسؤولية الوزراء فعنها ان يكونوا تحت احتساب مجلس الوكلاء
مباشرة كما هو موجود في سائر الملك الكونستيتيوسينية وسيونية ماعدا الدولة
الفرنساوية اليوم فان وزراءها مسؤولون للملك وهو مسؤول للمجلس
ومن آثار المسؤولية المذكورة ان أمور الادارة المتقدمة منها من
حقوق صاحب الدولة يتوقف انجازها على اجازة الوزراء بحيث لا يبرم
أمر منها حتى يستشيرهم وانهم لا يمكنهم البقاء في الخدمة الا اذا كان
غالب أعضاء مجلس الوكلاء موافقا في سياستهم فعلم ان المجلسين
المذكورين لا يتداخلان في تفاصيل الادارة وانما أدبهما وضع
القوانين وحفظها بالاحتساب على الدولة ومن أعمالها عند
الاجتماع النظر واعطاء الرأي فيما يعرض على كل منهما من النوازل
الاهمة الداخلية والخارجية وسؤال الوزراء عما يظهر لهما من
شأن والقدر في سيرتهم خصوصا مجلس الوكلاء وعلى الوزراء
الجواب عن جميع ذلك وتقع الجسالة بالمجلس علنا بين القاصدين
والمدافع ليتضح الحال ويظهر المصيب من المخطئ فاذا اتفق غالب
مجلس الوكلاء على تصويب سياسة الوزراء بعد التأمل في أدلة
القاصد والمدافع تيسر للوزراء البقاء في الخدمة وتحصل حيثما

فائدة الدولة والمملكة أما الدولة فليكون المجلس لا يتوقف بعد ذلك
 في أن يسوغ لها أخذ ما تقتضيه المصلحة من المال والرجال لأن من وافق
 على المصلحة وعلى حسن سيرة مباشرها لا يمنع من إعطاء ما يانزم لانبجازه
 وأما فائدة المملكة فبثبوت استقامة سيرة المباشرين لمصالحها فيكون
 عليهم تصرف أموالها ودماء أبنائها حيث كان فيما يعود بالنفع عليها
 وبمثل هذا يستقيم حال الدولة والمملكة ولو كان الملك أسير الشهوات
 أو ضعيف الرأي كما تقدم وأما إذا اتفق غالب المجلس على عدم
 استحسان سياسة الوزراء فيجب على الملك عند ذلك أحد أمرين
 إما تبديل الوزراء المشار إليهم أو حل مجلس الوصلاء على أن
 يعيد الأهل إلى الانتخاب في مدة معلومة فإذا انتخبوا من يكون أشهر
 بالدين والمساعدة للدولة دل ذلك على رضاهم بسياستها فيبقى الوزراء
 على خططهم وأما إذا انتخبوا الأولين أو من يكون مثلهم في الشدة
 فيستدل بذلك على عدم رضاهم بها ويجب حينئذ نزع الوزراء
 من الخدمة وتعيينهم بمن سياسة ترضى المجلس والمجلس المذكور
 أن يدعى الخيانة على أحد الوزراء أو مجموعهم إذا رأى أدلة ذلك
 وتكون نازلة تفصل بالمجلس الأعلى وظاهر أن الوزراء المشار إليهم
 كما تشدد عليهم القوانين المسئولية عن تصرفاتهم تمنع التعدي عليهم
 في النفس والعرض والمال فيفسر للنجيب الأمين منهم إجراء الأمور على
 مواقع المصلحة والغرض بما يستعقبه ذلك من جيل الثناء وإن اتصف
 بالأمانة دون النجاسة المحرّج بالسلامة لاله ولا عليه وبما تقدم يعلم أن
 سلطة المجلسين تتحد تارة وتفسق أخرى إذ لكل منهما أعمال

تخصه واعمال يشارك فيها الا سخر غير أن المعتبر في تأسيس القوانين
 سيجها المتعلقة بالجانب والقوة العسكرية وفي الاحتساب على الدولة
 واستحسان سياسة الوزراء وضده الذين ينبت عليهم ما خرجهم
 او بقاؤهم في الخطه هو ما يتفق عليه غالب مجلس الوكلاء حسبما
 أشير اليه قريبا كما امره القوانين المذكورة يتوقف على موافقة
 المجلس الاعلى على كونها غير مخالفة لاصول الكونستيتوسيون
 قات فيتقرر بما ذكر يعلم ايضا ان صاحب الدولة عندهم مضطرا الى
 موافقة ارادة المجلس التي هي في الحقيقة ارادة اهل المملكة ولا ينفى
 ما يتبادر فيه من التشديدات التي تأياها نفوس غير المنصفين من
 الامراء والوزراء لسكن من تحت الامم الأوروبية ونجاح مساعيها
 الدنيوية أن عرف ملوكها ووزرائها ما ينشأ عن ذلك من الفوائد
 الهمة التي منها كف ايدي المأمورين عن التعدي على الرعية ومنها
 سهولة اعتبار المكاسب في توزيع الاداء على الاهالي بحيث لا يتقص
 من رؤس اموالهم اذ لا يتم مع ذلك نمو العمران ومنها ان الرعايا اذا
 وافق وكلائها على اصل المصلحة فانها لا تشج باعطاء ما يلزم لانجازها
 كما تقدم ومنها ان المفسد لا يجد ساعا للفرح في تصرفات الدولة بقصد
 التنفير منها وتغيير القلوب عليها ومنها ان الوالي المستبد ولو كان عادلا
 لا يمكنه الاطلاع على احوال مملكته الا بواسطة الوزراء وغيرهم من
 الموظفين الذين أثبتت التجارب ان اكثرهم لا يعرفون الولاة
 الا بما تقتضيه فوائدهم فيتوصلون بالنصائح العمومية الى اغراضهم
 الشخصية خصوصا من يشير منهم على الملوك بالاستبداد لماله في ذلك
 من المعونة على حصول استبداده هو ايضا في مأموريته على انه يمكن لولا

أن نقول ان المأمورين في دولة الاستبداد كل واحد منهم مستبد على قدر حال مأموريته فلهذه الفوائد ونحوها تجشم الملوك والوزراء ما في التقييد في مبدأ الامر من الممرارة نظرا لما يستتبعه من لذة اسطوة والمحضارة وقد صرح بعضهم في ذلك بما لم نزل نشاهده من تقيدهم في العلوم والاماعات واستخراج كنوز الارض بالزراعة والبحث عن المعادن وحصولهم من امثال هذه المذكرات الناتجة من اتحاد الراعي والرعية على ما قوى حمايتهم في البر والبحر حتى ما يتهتم الامم واستولوا على ممالك كثيرة خارجة عن قسم اوربا ونالوا من نفوذ الكلمة في غير ممالكهم ما هو مشاهد وصاروا في التصرفات الدنيوية قدوة لغيرهم وما ذاك الا باجراء القوانين السياسية التي مدارها على ما تقتضيه الحرية المشروحة سابقا من حفظ حقوق الانسان في نفسه وعرضه وماله والاتحاد في جلب المصالح ودرء المفاسد برعاية العادات والامكنة والزمنة التي تعتبر شريعتنا اختلاف احكامها اعتبارا كلياً ولتلك القوانين في الممالك الاورباوية من الاحترام واستمرار النفوذ برعاية اهل المحل واعقد ما يحمي حقوق الرعية وحريتها ويؤمن الضعيف من بطش القوي ويدفع عن المظلوم سلطة الظالم مثل ما كان رمة الفرس التي طال ملكها ودام حديث عدلها الى الابد وشهد له بعض ملوكها بالعدل سيدنا الصادق صلى الله عليه وسلم ومثل ما كان لامة الرومان التي استولت على غالب جهات المعمور حتى كان يقال لها في ذلك الوقت كرسى ممالك الارض ومثل ما كان لامة اليونان التي استولى العدو على بعض بلدانهم ولزمهم الخروج منها سألوا حكيما لهم أين تصلح السكنى فقال لهم في بلد تكون الشريعة

(٩٢)

فيه أقوى من السلطان الى غير ذلك من الامم التي ما بلغت غاية الاستقامة
الا باعترام قوانين احكامها المؤسسة على العدل العياشي كما ان عدم
احترامها كان منشأ رجوعهم الى الفوضى ولا يتوهم ان ذلك بسبب بركة
في شرائع الامم المذكورة اذ الواقع انها قوانين عقلية مبنية على
مراعاة الوازع الديني فاذا انضم الى ذلك وجود البركة والمحرمة
الالهية كما هو حال شريعةنا المطهرة كانت المخالفة معصيات تستحق عقوبته من
النكال الاخرى اجاب للانحطاط الديني ومن تتبع توارخ الامم
المشار اليها وتوارخ الامة الاسلامية رأى ذلك عيانا

هذا وان الضرورة قد تدعو الى تفويض ادارة المملكة لشخص
واحد مستد لى لكن لغاية محدودة وبشروط عندهم معهوده وذلك ان
من اصول السياسة الماثورة عن الامة الرومانية ان المملكة اذا اشتد
الخطر عليها اتى بكثرة الافساد الداخلى او بظهور مخائل التغلب عليها
من الخارجى وصعب حكم مواد ذلك بالاعمال القانونية لمكان تعدد
الانظار المتساوية وما عسى يقتضى الترجيح بينها من طول المفاوضات
المفضى الى عدم دفع المفسدين ومدا فة المتسلط الاجنبى او الى تأخير ذلك
عن وقت الحاجة فعند ذلك يطلب مجلس السناق من احد رئيسى الدولة
الجمهورية ان يختار من اعيان رجال المملكة من يسميه باسمه دكتور
اى، طلق التصرف تفوض اليه ادارة المملكة بما يظهر له بمقتضى
اجتهاده كعمل الحرب والصلح ونفى أو قتل من يراه من اهل الفساد
والخيانة او عقابه باخذ المال او غير ذلك مما يقتضيه الحال ولا يتوقف
نفوذ حكمه على موافقة احد الاقبي امر الجباي فان اعماله فيها موقوفة
على موافقة مجلس السناق وكل من له مأمورية ~~تتعلق~~ ^{تتعلق} بامور سياسية
فهو ملزم بتنفيذ اوامره وكذلك سائر الاهالى ولا يتجاوز التفويض

المذكور

المذكور ستة أشهر ولو كان السبب باقيا الابتغويض جديد كما انه اذا ارتفع السبب قبل انتهاء المدة فان التقويض ينتهي وترجع الادارة الى قوائمه وعند خروج المفوض له توجه اليه المسؤولية اللازمة لكل من يخرج من خطة معتبرة عندهم فيطلب منه بيان السبب الداعي الى ما تصرف به من قتل وحرب وصلح وأخذ مال ونحو ذلك بحضور أهل رومية المجتمة عن لذلك فان صوبوا تعليقه استوجب شكرهم وثناءهم على سيرته في موكب مخصوص وان كانت الاخرى يحكم عليه بما يناسب سوء تصرفه واكثر ما يكون ذلك بالنفي من التخت أو أداء المال ثم ان الاو ربوا بين صاروا في المدة الاخيرة يطالبون اسم الدكتور على كل والي مطلق التصرف سواء كان محدودا بة أم لا كالجنرال كروبول بانسكائرة ونابوليون الاوّل بفرنسا وغيرهما ممن كان استبداده من آثار حيرة تدور بالملكه يشتر فيها المشار اليه بزيد الدراية والحزم فينصب نفسه منصب الدكتور وتعرف به العامة بقصد اتحاد الحيرة وتخليص الملكه من مواقع الخطر واستصلاح حالها بتهذيب جفاة الاهالي وتقويم اعوجاجهم لكنهم لا يحصلون غالباء الى هذا المقصود بل يتوصل المنتصب بذلك الى اغتنام الفرصة لاستمرار استبداده اما لاستمرار اسباب الحيرة وضعفه عن ازالها واما لتكون المنتصب ازالها بحسن تدبير وقع من الاهالي موقع الاعجاب حتى اكتسب بذلك مزيد احترام عندهم أسس عليه سلطته واثار نفوذ ارادته على اجراء قوانين الملكه مرجحا بذلك حظ نفسه على المصالح العامة لكن ذلك مع ما يفضي اليه من المضار الاستبدادية لا يصح ان المصير اليه واجب عند قيام سببه لاستبقاء راحة الملكه كجيشير

اليه قولاً محكم من نصكم وفرنساوى انا بمقتضى ما نسمع من
 احوال الامم التي كانت حاصلة على الحرية التامة نرى ان احوال
 قديقتى ارضاء السرة على الحرية ارضاء وقتاً قلت وحيث كان
 التفويض المشار اليه اغناساغ للضرورة وما أبيع للضرورة يتفقد
 بقدرها فلا جرم يجب الرجوع الى كشف هيب الحرية بعد زوال السبب
 هذا وقد فرزنا في هذه المقدمة من الادلة الناهضة الواضحة على
 ما في التصرفات السياسية المضبوطة بالتنظيمات من المصالح العامة
 والمخاصة التي يشهد العيان بانارها الناجحة في الماء وما في التصرفات
 السياسية الغير المضبوطة من المضار الفادحة ما تقر به عن النصوح
 الحب تخير الوطن وانى لأزال أقول ان ترتيب التنظيمات
 المشار اليها من لوازم وقتنا هذا كما أقول صدقاً بالحق ان كل
 متوظف لا يرى الاستعاب عليه في وظيفة فهو عديم الأمانة والنصيحة
 لدولته ووطنه ولو كان معتمداً في ذلك على ما قد يجره في نفسه
 من حب الانصاف لانه تعيب فيما يدب تعقب الخراب بامتناعه من
 المراقبة والاحتساب حيث ان اكثر المتوظفين اغناساغ
 خطاه على مقتضى شهواته ومصالحه الخصوصية مؤثراً لها على المصا
 الوطنية العمومية فعب انه كان يجب ولا على حب الانصاف
 فان غيره لا يفعل مثله الا بمراقبة الاحتساب ولانه لو كان منص
 في الواقع ماضره الاحتساب حتى يمتنع منه بل الا لائق بحاله من
 الحث عليه اذ به تظهر براءته ظهوراً لا يحصى بل بدون ذلك وفي
 أودعناه في غضون هاته المقدمة للمستبصرين كفايه والتوف
 بيد الله الم محمود في كل بداءة ونهاية

* (٩٠) *

* (الخاتمة) *

يقول جامع هذا الكتاب ألهمة الله الى الرشيد والصواب هذا
ما تيسر لنا جمعه بحول الله من تصارييف الممالك الاسلاميه والأورباويه
مستعينين في تهذيب ألفاظه ببعض أبناء الوطن والمغتربون بمن رفقته
بعين الانصاف ان يرى فيه افادة كافية في معرفة المهم من احوال تلك
الاقام وان يغفر في جنب ذلك ما لا يخلو عنه كلام مترجم من فنان
العبارة وعدم الانحياز سيميا وغالب ما ترجمناه يشتمل على مدلولات
مستحدثة لم توضع لها ألفاظ عربية حتى اننا قد نلتجئ بذلك الى نقل اللفظ
بحاله اتمكالا على اشبه تهاوه ولو عند خصوص المستعلمين لمحوادث الوقت
ولان منع أن يكون منشأ ذلك عدم اطلاعنا على الرديف العربي وبالجملة
فأغضاه ذوي العرفان مأمول مثلنا من لم يحرثه على موقف الاستهداف
لا القيام بواجب التصحيح لله ورسوله ولا نعمة المسلمين وعاقبتهم وبناء على
كون ذلك مصدر التأليف فعلن ان عسى أن يعترف به على شيء من الهفوات
مأنا ترى له المتزينة علنا في الارشاد الى اصلاحه بما يكون أعون في استجلاب
النصيحه مستو جبا بذلك ثنائنا ثم الثواب من رب العباد نجو - وهذا
التأليف باعانة الله تعالى عشية يوم الاثنين عاشر جمادى الاولى
سنة اربع وثمانين ومائتين وألف

بسم الله الرحمن الرحيم * (الخاتمة الجديدة) *

لك اللهم الحمد والمئة * اذ جعلت المعارف ابواب الجنة * تنصل
بها الى التمانى بحمدك * والتباهى في تسميكت وبحمدك * باحسن
ما تخلص به اباكرا المعاني في النحور * وابهى ما تضرعت به افواه

(٩٦)

الأقلام في السطور * وبعدي قول الفقير الى مولاه * المستمنح فضله
وهطاه * سليم الياس جوى الدمشقي مولدا * المصري وطننا وقطنا * لما
رأيت مقدمة كتاب اقوم المسالك * في احوال الممالك * الذي جمع
فاوى * واشتمل على مهمات الامور * مما لم تر مثله جمعا * من
اجل ما صنف * وايهي ما حرر والف * جذيرة ان تزدان بها المكتاب *
وتكون تلاوتها للعموم كالنعم الواجب * كيف لا وهي نفثه براعة رب المحكم
الحائز شري المجد والقلم * المشهور بفضل له اشتهار الشمس
في رابعة النهار * والذي لا يدرك شاؤه في ذلك المضمار * صاحب الدولة
والعطوفة خير الدين باشا الذي تفخربه المعالي والرتب * ويرتفع
به منار الفضل والادب * ولنا فيما تولا من المناصب الرفيعة
كالمؤازرة في الدولة التونسية والصدارة في الدولة العلية دلائل *
قال لسان حالها جارا محق وزهق الباطل * وقدم طبعها وزها في
قالب المحسن وضعها * في مطبعتنا الكائنة في ملك دمريكر بمحور مجلس
الصحف المشهورة بمطبعة جويدة الاسكندرية * حرسها الله تعالى من
كل آفة وبليه * واذ كان لا يحتاج التمار الى دليل * اقتصرنا عن طبع
ما جاءت به فرسان البلاغة من التقاريظ التي يعز انظيرها المثل كيف لا
واولئك الفرسان من احتاطوا دائرة المعارف حول كل تليد وطارف حتى
حنن اليهم الاداب اعناقها * والقت اليهم المعارف مقاليدها * فلا بدع
اذا استنزلوا الشهب في اقلامهم * وارتفع منار الفضل من اعلامهم
ولا يصيق الوقت لمناجدها بتلك التقاريظ الموافرة لتعميم الفائدة *
في ما نأمله * نسأل الله تعالى ان يعيننا على خدمة الاوطان لنبدل
في ما نأمله في الامكان * اذ انما معتصمون بحبله المتين على الدوام
في ما نأمله في البدء والختام

